

أ.د. حسين جمعة



يوزع مجاناً مع مجلة الموقف الأدبي - العدد 12 - أبريل 2012 - السنة الخامسة

الثقافة للجميع

سلسلة

كتاب الجيب

من النكبة إلى المقاومة والتجدد



اختيار وتقديم: مالك صقور

**من النكبة إلى
المقاومة والتجدد**

عنوان الكتاب : من النكبة إلى المقاومة والتجدد

تأليف : أ.د. حسين جمعة

اختيار وتقديم : مالك صقور

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم 63/ أب

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة

محفوظة

لاتحاد الكتاب العرب

البريد الإلكتروني: unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

<http://www.awu-dam.org>

من النكبة إلى المقاومة والتجدد

تأليف
أ.د. حسين جمعة

اختيار وتقديم
مالك صقور

فلسطين البوصلة

يمضي يوم، تبتعد فيه فلسطين يوماً. ينقضي شهر تبتعد فيه فلسطين شهراً. ينصر عام، توغل فلسطين بالبعد، تتسلخ عقود، تحتل فلسطين مساحة الذاكرة، وتستوطن القلب.

وتنقلب فلسطين على شفاه الشعراء قصائد، وبأقلام الروائيين قصصاً وروايات وحكايات حتى. وعلى أيدي الفدائيين قنابل ورمصاص واستشهاديين وأسرى.

وفلسطين التي في القلب والذاكرة والوجدان عند بعضهم تجدها عند آخرين صورة على حائط. وعند المؤمنين فعلاً بفلسطين وبحق العودة تجدها أقرب من ارتداد الطرف. وعند (...) أبعد من نجوم السماء، أولئك الذين باعوا فلسطين، وتاجروا بالدم الفلسطيني، سواء أكانوا عرباً، أم فلسطينيين.

والآن، وبعد أربعة وستين عاماً على اغتصاب فلسطين، لو طلب من أكبر حاسوب في العالم، وبمساعدة آلاف الآلات الحاسوبية الإلكترونية، والكهربائية، والنصف آلية واليدوية، أن تجمع كم مرة كتب اسم فلسطين، أو كم مرة ذكر اسم فلسطين، منذ عام النكبة المشؤوم، وحتى يومنا هذا، في كتب التاريخ، والكتب المدرسية، والدراسات، والبحوث، والمقالات، سواء في المجالات الفصلية، والشهرية والأسبوعية، وفي الجرائد اليومية، المحلية منها والعربية، والفلسطينية، والعالمية بكافة أشكالها وأصنافها، ومن ثم في نشرات الأخبار الإذاعية، والمتلفزة، والحوارات، والمنتديات، واللقاءات، والأحاديث الرسمية والعادية، ناهيك عن الخطابات الحماسية وغير الحماسية، من غير أن أنسى المباحثات السرية منها والعلمية، ففي رأيي ستكون نتيجة الجمع خاضعة لاحتمالين:

الأول: إما سيصمت الحاسوب رعباً وخجلاً، وسينفلس.

الثاني: إن كانت (استطاعة) الحاسوب العملاق غير محدودة، ولا نهائية، فسيكون الرقم أكبر من أي رقم فلكي، وحتى لقرون قادمة.

وإذا ما طُلب من الحاسوب العملاق أن يحصي عدد اللاجئين، والنازحين، والمهجّرين، ومشوهي الحرب، والجرحى، والأسرى، ومن ثم عدد الشهداء الذين سقطوا في فلسطين وخارجها، أو سئل عن حجم الدم الذي سفح في سبيل فلسطين، فصدقوني، لن تحمر كتب التاريخ خجلاً فحسب، بل ستصبح مياه المحيطات حمراء من الدم الفلسطيني المراق.. وإن لم يستح الحاسوب العملاق أو يخجل من

الأرقام المرعبة، والصور المأساوية، فستكون الأرقام فلكية بامتياز أيضاً.

أقول ذلك، لأذكر بأميرين:

الأمر الأول: إن شذاذ الآفاق - اليهود - اتحدوا، وهم أقليات مشتتين في كل أنحاء العالم، واستطاعوا أن يشكّلوا (اللوبي الصهيوني)، وأن يفتصبوا فلسطين بمساعدة الاستعمار القديم والحديث.

الأمر الثاني: العرب الذين يملكون الأرض، والثروة التي لا حدود لها والتاريخ، واللغة الواحدة لم يتحدوا، ومنذ النكبة وحتى هذه الدقيقة، وهم يتاجرون بالدم الفلسطيني، وحتى الفلسطينيين، لم يتحدوا لا داخل فلسطين المحتلة، ولا خارجها.

* * *

كانت فلسطين موطن موسى (عليه السلام)، كما وعاش فيها النبي إبراهيم (عليه السلام) وانطلق منها إلى مكة ليبيّن الكعبة، وفي فلسطين ولد السيد المسيح (عليه السلام)، وعلى الجلجلة، صلبه اليهود.

في فلسطين معراج الرسول الأعظم، وفيها المسجد الأقصى الحرم الثاني، وأولى القبلتين، دخلها الخليفة الثاني الفاروق العادل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وضرب مثلاً بمركبه المتواضع وملابسه البسيطة، مما أثار دهشة أهل القدس.

ودهشوا أكثر عندما عامل الناس بلطف ولين وتواضع. ومنها انطلقت المسيحية، ومنها انتشر الإسلام، وعلى صخرتها تحطم أسطول نابليون بونابرت، وأخفق في فتحها. فأطلق النداء الشهير:

"إلى ورثة فلسطين الشرعيين
أيها اليهود"

أيها الشعب الفريد الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه اسمه ووجوده.

انهضوا أيها المبعدون، فإن فرنسا تقدم لكم إرث إسرائيل.

إن فرنسا تضمن لكم إرثكم ومكانتكم بين شعوب العالم، وحقوقكم التي سلبت منك لآلاف السنين وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعي المطلق في عبارة "يهوه" طبقاً لعقيدتكم وإلى الأبد".

يذكر المؤرخون أن نداء نابليون بونابرت نداء سياسياً، كي يكسب اليهود في أصقاع العالم، ولكي يستخدمهم كطابور خامس أمام جيوشه.. لا سيما بعد هزيمته على أبواب عكا...

وبعد خمسين عاماً على نداء نابليون الأول، كرر نابليون الثالث النداء ذاته، وحث اليهود على بناء دولتهم: "إن وطنكم القديم يناديكم".

وفي عام 1898 قال تيودور هرتزل في مؤتمر بال بسويسرا مخاطباً اليهود القادمين من بلدان عديدة: ((سوف تضحكون مني إن قلت لكم: إن الدولة اليهودية سوف تصبح واقعاً حياً بعد خمسين سنة.

نعم بعد خمسين سنة سوف تقوم دولة يهودية وستكون واقعاً
دولياً)).

هذا ما تتبأ به هرتزل. وقد كان حلماً خيالياً، أو وهماً جنونياً.
لكن عمل اليهود في كل أصقاع الدنيا يجد، وحققوا حلم هرتزل بعد
خمسين عاماً بالتمام والكمال على نبوءة هيرتزل أي في عام 1948.

* * *

"من النكبة إلى المقاومة والتجدد" هو عنوان الكتاب الذي بين
أيدينا. وصاحب هذا الكتاب الأستاذ الدكتور الباحث حسين جمعة
لا يحتاج إلى شهادة ولا كتابه إلى تعريف. فما يجده القارئ في كتابه
يشكل دليلاً حياً على غنى الباحث المعرفي أولاً وعلى روحه الوطنية
ومشاعره القومية.

فالنكبة وهو مصطلح أطلق عام 1948، وهذا العام عام
النكبة، أصبح علامة فارقة سيئة سوداء في تاريخ العرب. لأن هذه
النكبة ولدت نكبات وهزائم بالجملة، وما زالت أفعال تلك النكبة
مستمرة في وطننا حتى هذه الدقيقة، ويخطئ من يظن أو يعتقد أنه
سيحصل أو سيتم استقرار ما في مشرقنا العربي، والكيان الصهيوني
يحتل فلسطين.

يتناول الباحث في هذه الدراسة، (النكبة الفلسطينية) من
منظور تاريخي وسياسي واجتماعي وأدبي، وكما يقول في مقدمته:
"أي أنه يبحث في الوظيفة (المضمون والهدف) فالنكبة ليست مجرد

حدث تاريخي عابر في الزمان والمكان، وإنما بداية تحقيق مشروع استعماري استيطاني عنصري عالمي وضعت مخططاته من قبل الغرب الأوروبي.

يعود الباحث في هذه الدراسة إلى أسباب النكبة والنتائج وما آلت إليه، بدءاً من الجذور، مروراً بكل ما سببته من مآسٍ، ومجازر، ومعاناة الشعب الفلسطيني خلال أربعة وستين عاماً، وحتى اليوم، وكيف انعكست هذه النكبة في الأدب والثقافة، شعراً ورواية وقصة.

يتدرج الباحث في هذه الدراسة صعوداً من:

- مفهوم النكبة، ومن ثم يعود إلى جذورها، ويحددها بمرحلتين: المرحلة الأولى 1898 - 1918، والمرحلة الثانية: 1918 - 1948 أما المرحلة الثالثة: فيتناول فيها معاناة النكبة والبحث عن الذات والهوية، أي بين عام 1948 وعام 1965، العام الذي انطلقت فيه الثورة الفلسطينية، ويخصص القسم الرابع لمرحلة النهوض ووعي الذات، بين عام 1965 وعام 2000. ومنذ عام 2000 يعد الباحث أنها مرحلة التحدي والمقاومة، وينتهي الدكتور حسين دراسته هذه بقراءة فكرية تحليلية نقدية أدبية لرواية من أهم روايات الأديب الشهيد غسان كنفاني (عائد إلى حيفا).

ويخلص الباحث إلى القول: في ضوء المشهد العربي، وعمّا يطبّل له ويزمر عن (الربيع العربي) فيقول: "لكن المتأمل في الأحداث يدرك أنه زمن الربيع الصهيوني، فالعرب يتقاتلون فيما بينهم".

وينتهي إلى القول: "أصبحت النكبة تحرراً ذاتياً وموضوعياً، وطنياً وقومياً، ثقافياً وتاريخياً، دينياً واجتماعياً.. تحرراً من كل عوامل التردد والإحباط والانكسار والخوف والذل واليأس والهزيمة. وتحرراً من عقدة الذنب التي سقطوا في أتون تناقضاتها حتى أدى بهم الأمر إلى خلق فتنة طامة لأمة".

يركز الباحث على الأدب المقاوم، فالنكبة لم تعد بكاء على الفردوس المفقود، ولا ذرف دموع على هدر كرامة الإنسان الفلسطيني، ولا تمزقاً قاتلاً في أرض اللجوء والشتات".

بل على الأدب المقاوم شحذ الهمم وتوحيد الجهود والفصائل الفلسطينية كلها من أجل المقاومة، والمقاومة التي من غيرها لن تتحرر فلسطين.

ونحن في اتحاد الكتاب العرب، إذ نخصص هذا العدد من كتاب الجيب مع مجلة "الموقف الأدبي" في الذكرى الرابعة والستين للنكبة واغتصاب فلسطين، فلأننا نؤمن إيماناً مطلقاً بأن فلسطين ستبقى قبلة العرب.

وستبقى فلسطين هي البوصلة.

مالك صقور

من النكبة إلى المقاومة والتجدد

مقدمة:

يتناول هذا البحث نكبة الشعب الفلسطيني عام (1948م) في ضوء سياقاتها التاريخية والفكرية والسياسية والاجتماعية، والأدبية؛ أي إنه يبحث في الوظيفة (المضمون والهدف) لا في الطبيعة (الشكل والجوانب الجمالية أو الفنية)؛ وإن ألمَّ بها حيناً. فالنكبة ليست مجرد حدث تاريخي عابر في الزمان والمكان وإنما هي بداية تحقيق مشروع استعماري استيطاني عنصري عالمي وضعت مخططاته من قِبَل الغرب الأوربي ما فَرَضَ على الباحث أن يعود إلى مكوناته أسباباً ونتائج، والوقوف عند جذوره الأولى، وما آلت إليه من نكبات أولها نكبة (1948م).. ولذا نرى أن الهدف من هذا البحث تثبيت الوعي بمضمون هذا الحدث ودور الأدب في تمكين الوعي بالوجود والهوية والمخزون الفكري الثقافي قبل حدوث النكبة وبعده؛ وهو في آنٍ معاً يبرز الوجه القذر للغزو الاستيطاني الصهيوني؛ واغتصابه للأرض؛ ومحاولاته الهادفة إلى محو التاريخ والهوية العربية الفلسطينية... ثم إن هذا البحث يحاول بيان الجوهر الشامل للقضية الفلسطينية بوصفها قضية نضالية تحريرية وطنياً وقومياً وإنسانياً؛ من دون أن نسعى إلى التفصيل؛

والإحاطة بكل جوانبها، لأن هذا يحتاج إلى مجلدات كبرى... فالمنهج العلمي الموضوعي هو من يدفعنا إلى ارتشاف ذلك الجوهر بإيجاز وتركيز، من دون نقص أو إخلال.

إن أدب النكبة بما آل إليه من دفاع عن الذات ومقاومة المحتل الغاصب إنما ينتمي إلى أدب الطباع السامية بكل سماته وأغراضه وموضوعاته رثاء وهجاء وفخراً؛ تحريضاً وحماسة، ووصفاً للبطولات والأبطال... في الوقت الذي يعد فعلاً توثيقياً تاريخياً لحدث جَلَّ في تاريخ الأمة. وقد صمم هذا الأدب على إبراز الشخصية الفلسطينية بكل ملامحها كونها شخصية حيَّة واقعية وثابتة؛ ممتدة ومتجددة في كل مراحلها انطلاقاً من تجذرها التاريخي والحضاري، ووصولاً إلى المقاومة الوطنية والقومية التي سجلها الشعب الفلسطيني في سجلات الشرف والخلود، سواء قبل النكبة أم بعدها؛ وسواء اختار المقاومة الإيجابية؛ بالمواجهة والكفاح المسلح وانتفاضة الحجارة الأولى عام (1987م) أم المقاومة السلبية ابتداءً برفض العدو وأوامره وجوداً ومعنى، ومن بعد الإضراب وعدم التعاون والتحفيز على إرساء القلق في معيشتة وحياته بأساليب شتى حتى يستشعر عدم الراحة، ثم الرجوع من حيث أتى... وانتهاءً بمسيرات العودة وكسر حاجز الحصار عن الشعب الفلسطيني في غزة... وهو في ذلك كله حوَّل ذكرى النكبة إلى حال من نهوض وتجدد فكان العنوان (من النكبة إلى المقاومة والتجدد)، فمن صميم الموت تولد الحياة؛ ولا بد لطائر الفينيق أن يخفق جناحاه ليخترق عنان السماء... فلم يعد أحد ينكر أن النكبة هي التي أعادت صياغة الشخصية الفلسطينية، وأججت ثورتها للتمسك بالأرض

والعودة إلى فلسطين كامل فلسطين من البحر إلى النهر؛ وما المنفى أو اللجوء إلا حالة مؤقتة. فالفلسطيني لن يضيع في البلدان والدروب، والخامس عشر من أيار لم يعد مجرد ذكرى للنكبة بل غدا رمز شجرة الزيتون؛ ورائحة الخبز والزيت والوطن المزتر بالخواطر التي ما إن تتلاشى حتى تولد رؤى ضوئية تنشر بهاءها على طريق الحرية والعودة. ومن ثم فشهر أيار لم يعد لدى الفلسطيني خاصة والعربي عامة زمناً فيزيائياً طبيعياً وإنما أضحى ولادة لابتناسام الحياة بكل ما فيها من بياض إنساني يزيل من جنباتها السواد الصهيوني؛ ويتغلب على عتمة الجراح النازفة، ما يؤكد أن أيار غدا المحرقة التي ستحرق من تفوح منه رائحة العنصرية الحاقدة على أبناء الإنسان بوصفهم أغياراً لا ينتمون إلى شعب الله المختار... فليالي شهر النكبة أخذت تسقي القمر من بحر يافا وحيفاً وهو يغط فيه هادئاً وقد برئ من آلامه وأسقامه ما جعل الصهاينة يحاولون محو كل شيء يتعلق به، ويتفنون في صناعة الكذب والأوهام لقلعه من ذاكرة الشعب الفلسطيني..

وبناء على ما سبق فسيحاول هذا البحث معالجة عدد من الموضوعات التي تلتصق بالنكبة معتمداً إبراز مفهومها، وما يرتبط به من مصطلحات ومعانٍ في إطار التدرج التاريخي لأحداث النكبة وصورتها المعانقة للإبداع الأدبي الفلسطيني، علماً أنه يشير إلى بعض الشعراء العرب والعالم كلاً استدعى الحديث عنه...

إن معيار دقة الفعل النقدي يحدونا إلى تنسم عالم الأرواح النقية في النصوص الأدبية؛ واستخلاص ماهية الفكر الموضوعي الجاد،

وتبني مبدأ الحياد الشريف لرؤية الحقيقة الساطعة في عالم يضحج
بالنفاق والخداع والكذب والتضليل والتشويه...
وهذا كله ما نتوخى بيانه وإيضاحه، انطلاقاً من إمامة اللثام
عما انتهت إليه سياقات النكبة حتى عصرنا الذي نعيش فيه.

والله ولي التوفيق

حسين جمعة

مدخل:

إذا كان المرحوم الدكتور إحسان عباس قد أجاد في الحديث عن مراحل (النكبة الفلسطينية) في بحثه القيم (الشعر في فلسطين حتى العام 1967م)⁽¹⁾ فإن الشهيد الأديب غسان كنفاني أول من ألف كتاباً أسماه (أدب المقاومة في فلسطين المحتلة) عام (1966م) الذي دارت فصوله حول الشعر المقاوم بين (1948 - 1966م)، وتناوله بوصفه ظاهرة نفسية اجتماعية، وثقافية أدبية تقوم بالدفاع عن الوجود والذات وتحارب العدو الغاصب... وكذلك فعل بعده الناقد المصري غالي شكري في كتابه (أدب المقاومة) عام (1970م) وحسني محمود في كتابه (شعر المقاومة الفلسطينية) بأجزائه الأربعة، وقد صدر في مطلع الثمانينيات، ويوسف الخطيب في (ديوان الوطن المحتل) عام (1968م)، ثم (أدب الحرب) لحننا مينه ونجاح العطار عام (1976م) ودراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي لحسين مروة عام (1986م). وقد ركز هو الآخر في المؤثرات التي أحاطت بأدب الأرض المحتلة المقاوم، ولم يتعرض له جمالياً أو فنياً، وهو ما فعله - على نحو ما - طلعت سقيرق في كتابه (الشعر الفلسطيني المقاوم في جيله الثاني) عام (1993م) ولاسيما حين تحدثت عن الشخصية الفلسطينية وملامحها في

⁽¹⁾ انظر: الموسوعة الفلسطينية 27.5/4؛ وفيه جسدٌ وعباً عالياً للذات الوطنية.

واقعيّتها وثباتها وتجدها... ومما قاله في هذا الشأن: "عند دراسة الشخصية الفلسطينية لا بد من القول: إنها شخصية تطلب الحياة والفرح في كل وقت. وطبيعي أن تكون مثل هذه الشخصية مسكونة بطلب الهدوء والسكينة والسلام من خلال سيادة العدل والحق. ولعل الشخصية الفلسطينية من أكثر الشخصيات الإنسانية وأشدّها طلباً للسلام بعد أن ذاقّت المرارة والعذاب والآلام والموت طوال السنوات الماضية"⁽¹⁾. وشبيهه من هذا كله ما قام به عز الدين المناصرة في كتابه (هامش النص الشعري) الصادر سنة (2002م) حين عرض لنصوص مقاومة وفق دلالتها الزمانية⁽²⁾. ولعل من آخر المؤلفات التي أرخت لأحداث النكبة في الأدب العربي كي تظل ذاكرة الأجيال متيقظة كتاب (أدب النكبة في التراث العربي) للأديب محمد حمدان الذي أوقفه على نكبات الأمة التاريخية في العصر العباسي، على حين أوقف الدكتور إبراهيم جابر كتابه (جرح النكبة) على المأساة الفلسطينية. ويتألف من ثلاثة أجزاء تسجل مئات المجازر التي أحدثت في الشعب الفلسطيني مأساة كبرى تشيب لها الولدان⁽³⁾. وسبقهما إلى ذلك الدكتور عبد الرحمن ياغي في كتابه (حياة الأدب الفلسطيني من أول النهضة حتى النكبة) - منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر - بيروت - 1968.

(1) الشعر الفلسطيني المقاوم في جيله الثاني 48 وانظر فيه الفصل كاملاً 41 - 66.

(2) انظر: ذلك كله في (شعر المقاومة في النقد الأدبي في العالم العربي) - د. عادل الأسطة.

(3) انظر: مجلة العودة - ص 44 - العدد 56.

وحيثما نتمثل بكل هؤلاء وأشباههم جامعين بين التأريخ والتوثيق والقراءة والنقد فإننا نقدم وظيفة استكمال ما بدؤوه، لافتين الانتباه إلى أن التمييز بين دلالة الكوارث ومآسيها يكاد يكون متماثلاً بين القدماء والمحدثين وإن اختلفت طبيعة الأحداث، أو طرائق التعبير على نحو ما⁽¹⁾. وهذا ما ركزنا عليه القول حين وقفنا على جملة غير قليلة من النواحي الجمالية والدلالية في كتابنا (ملاحم من الأدب المقاوم - فلسطين أنموذجاً).

ولا ننسى في هذا المقام أن نشير إلى أن القدس والمسجد الأقصى قد لقي كل منهما عناية كبيرة من الأدباء والمفكرين وألّفوا الكتب المتعددة فيهما...⁽²⁾

ومن ثمة أخذت فلسطين تشكل في الذات الفلسطينية والعربية المقاومة روح القيمة والعطاء نافضة عن ذاكرتها وعاتها كل عوامل الضياع والتردد والخوف من المجهول... وأصبح الشعب الفلسطيني يعرف طريقه إلى العودة ليزيل من طريقه كل آثار الإحباط والارتفاع عن السقوط في أتون اتهام الآخر بالمسؤولية عن نكبته أو اتهام

(1) انظر: أدب النكبة في التراث العربي (17 - 21).

(2) هنا أدب وكتب وأبحاث كثيرة تكاد لا تحصى، منها ما هو عام يشمل القضية الفلسطينية ومنها ما هو خاص بكل منهما مثل (رسالة من المسجد الأقصى 17 - 47 و 49 - 55 و 69) وانظر مجلة زهرة المدائن - ص 4 - 18 و 28 - 35 - العدد 17 وعودة النسور 81 - 86 وخلف أسوار الهوى 11 و 22 و 30 و 32 و 34 و 41 و 45 و 50 و 52 وأحلام العودة 16 و 40 والأعمال الشعرية الكاملة (يحيى برزق) 1/164 و 168 و 175 و 181 ومن القدس إلى غزة (دراسة فكرية سياسية).

الأجداد... فالكينونة الفلسطينية غدت واضحة الهوية، ضاربة في عمق الجذر الحضاري الإنساني الذي لا يستطيع أحد أن ينال منها. وراح الأدب الفلسطيني يتركز حول مفهوم النكبة وأبعاده، ويؤسس لمفهوم الوحدة والتضامن على كل مستوى وصعيد، ولم تتركه اختلافات السياسيين ومدّعي النضال والتحرر.. فإذا كان الأجداد قد دفعوا ثمن سذاجتهم وفطرتهم السليمة فأصابتهم نكبة القتل والتهجير، وفقدان الأرض والبيت فلا يجوز أن تستمر هذه النكبة في الأبناء والأحفاد، وإنما عليها أن تولد في نفوسهم وطناً حراً وسيداً يحتويهم بمحبته وإنسانيته على حين ينتفض مارداً جباراً على مَنْ دنس ترابه، وشوّه بهاءه بالعنصرية والفاشية والتزوير والكذب، وشرع يخترع لنفسه أذاليل تدعو الصهاينة للتجمع في أرض فلسطين... فالكيان الصهيوني ما زال يبحث عن أشباه يهود أو متهودين في الداخل والخارج وفق رؤية صهيونية تشر فحيح الحقد والكراهية، وقد نكبت شعباً بأكمله، واقتلعت من أرضه... ولذلك لا بد من بيان مفهوم النكبة قبل التعرض لذلك كله ...

أولاً - مفهوم النكبة:

النكبة: مصطلح يعني - لغوياً - المصيبة أو الكارثة؛ وحوادث الدهر،⁽¹⁾ و - سياسياً - المأساة الإنسانية الفلسطينية تشريداً وتهجيراً، واقتلاعاً من الأرض وقتلاً لأبنائها وإرهاباً لهم؛ اعتقالاً وسجناً؛ وهدماً وتدميراً للبنى التحتية، وللممتلكات والمقدسات وغيرها... أي إنها تخريب منهجي لبنية المجتمع الفلسطيني سياسياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً تنفذها الحركة الصهيونية التي احتضنها الغرب منذ أن تبنى فكرة إنشاء (وطن قومي لليهود) في فلسطين. ويقابل مصطلح النكبة مصطلح الفدائي أو العمل الفدائي، ومصطلح (الانتفاضة)... وتعد هذه المصطلحات الثلاثة مصطلحات مرتبطة بالقضية الفلسطينية سيرورة وصيرورة في أزمنتها الممتدة والمتصلة؛ وقد دخلت في الأدبيات العالمية، والمفاهيم الدولية وفق دلالتها الأصيلة. أما مصطلح (النكسة) فهو مصطلح سياسي ناتج عن القضية الفلسطينية، ولكنه يتسع - سياسياً - ليرتبط بكل الأراضي العربية المحتلة في (5/6/1967م)⁽²⁾. أما مصطلحات (المقاومة) و (الجهاد) و (الكفاح المسلح) فهي متماثلة في الدلالة، وتعود إلى تواريخ قديمة واستخدمت لدى الشعب العربي

(1) لسان العرب (نكب).

(2) انظر: ملامح في الأدب المقاوم - ص 17 - 21 (مفاهيم النكبة والنكسة والأزمة).

وغيره⁽¹⁾؛ علماً أن مصطلح المقاومة قد ارتبط عند عدد من الدارسين بمقاومة النازية خلال الحرب العالمية الثانية وبالمقاومة الفرنسية خاصة⁽²⁾.

ولما كان مصطلح (النكبة) حقيقة ماثلة في حياة الفلسطينيين وتاريخهم وثقافتهم وأدبهم فإن أول من استخدمه في شعره الشاعر المصري أحمد محرم في عام (1933م)⁽³⁾ حين فتح الإنكليز نار بنادقهم على المتظاهرين الفلسطينيين في تلك السنة علماً أن الأحداث والمصائب لم تتوقف يوماً من الأيام...، فقال:⁽⁴⁾

يا فلسطين اصطليها نكبة هاجها للقوم عهد مُضطرم
واشربي كأسك مما عصروا من زعافٍ جائل في كل فم
في فؤادي جرحك الدامي وفي كبدي ما فيك من حُزنٍ وهم

ثم شرع الشعر المقاوم داخل الأرض المحتلة يتداوله إبان النكبة مباشرة شيئاً فشيئاً؛ إذ ذكره سالم جبران المولود في (1941م) واصفاً مأساة شعبه وقد غرق بدمه وقنابل الصهاينة فقال سنة (1948م)،⁽⁵⁾:

(1) انظر: كتابنا (المقاومة) 21 - 30 و 51 - 52 و 56 وإسرائيليات 27 - 30.

(2) انظر: "إسرائيليات - ص 26 - 28.

(3) انظر: مجلة زهرة المدائن - ص18 - العدد 26 - دمشق - أيار 2012م، وكان (محرم) توفي عام (1945م).

(4) انظر: مجلة زهرة المدائن - ص18 - العدد 26 - دمشق - أيار 2012م.

(5) أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 129.

كان ليل النكبة الأسود، لا إشعاع فيه
غير إشعاع القنابل
وهي تنصبّ على رأس قرى ليست تقاتل...
ولماذا يا بلادي؟!
قالت الأعين في رعب
ولم تفهم تفاصيل القضية

ثم عُرف مصطلح (النكبة) لدى الشعراء وغيرهم بكثرة كما
نراه في شعر أنشدته يحيى برزق في بداية ستينيات القرن العشرين؛ إذ
قال⁽¹⁾:

يا من شجاه وأدمى العين أيّار وهزّه كيف بئح الأهل والدارُ
خلّ البكاء فليس العار نكبتنا وإنما نُوحنا في النكبة العار
ودع حديث الأسي أو مُت به كمداً فليس يُبرئ بُوم الحيّ بيطار
جراحنا ليس تشفيها ماآتمنا لكنما طبُّها في السباح نُوار

وقد ذكر الشاعر القروي مصطلح النكبة في كلمة قدّم بها
لأبيات أنشدتها لأمه عام (1954م) فقال: "إن نكبة فلسطين لا يماثلها
نكبة في الأرض ولا السماء، كل خطب مهما فدح يهون بالنسبة
إليها، وكل إنسان عربياً كان أم غريباً لا يحزن ولا يغضب ولا يثور

(1) الأعمال الشعرية الكاملة (يحيى برزق) 241/1 وانظر فيه 156 و225 - 257.

لها فقد تجرّد من كل شعور وكل إنسانية؛ وكل دين⁽¹⁾؛ ثم أنشد قصيدته، وعنوانها (أمّتي فأمي فالإمام) وقدّم فيها بذكر فلسطين قبل الرثاء، ومنها قوله:⁽²⁾

أبعدَ فلسطينَ يَناحَ على فتىٍ وهل بقيت في مُقلّةٍ دمعاً بعدُ
بكائي على المليون أنضب أدمعي فما أنا إلا النار والحجر الصلد
وما الحقد من طبعي ولكن إذا بغى على وطني الباغون فجّرني الحقد

ثم ألفت بعد ذلك بزمن كتب تتناول النكبة وأدبها مثل كتاب (دراسات في أدب النكبة - الرواية) للدكتور عبد الكريم الأشر، و(الشعر المقاوم قبل النكبة) لسمير عطية... أما مصطلحات (الفدائي والمقاومة والانتفاضة) فقد شاعت على ألسنة الأدباء وعامة الناس بعد (1965م) بوصفها جزءاً لا يتجزأ من معاني إبداعاتهم الأدبية، ويمثلها مصطلح الجهاد والكفاح المسلح ومن ذلك ما قاله كمال ناصر (1925 - 1973م):⁽³⁾...

جلّ الفدائي عن شعر يراودني فقد حشدت له الأعطار أوزانا

وقال حسن طالب الزريقي يذكر الانتفاضة في قصيدته (الثورة الجريحة)⁽⁴⁾:

(1) ديوان القروي 886.

(2) المصدر السابق 887.

(3) الآثار الشعرية 149.

(4) أحلام العودة 43 وانظر فيه 23 وانظر فيه 23 (مصطلح الشهيد والفدا).

هذي انتفاضتنا لقد شبت كالنار تمذف وابل الصخر

وإذا كان ما سبق قد أشار إلى بعض المفاهيم، وأوضح بداية استعمال مصطلح النكبة في الأدب فإن جذور النكبة الفلسطينية تعود إلى نهاية القرن الثامن عشر ومرت بمراحل عدة.

ثانياً - جذور النكبة:

نكبة الشعب الفلسطيني قديمة تمتد إلى ما يزيد على قرن من الزمان قبل حدوثها سنة (1948م)؛ وقد مرت سرقة فلسطين، واغتصابها، وتشويه التاريخ، وتزوير الثقافة بمراحل عدة؛ مثل ما مر أدب النكبة بإرهاصات تاريخية عدة بدأ بوصفه منتمياً إلى مفهوم الأدب العام شعراً ونثراً كما رأيناه عند إسعاف النشاشيبي (1880 - 1947م)⁽¹⁾ في نثره، وعبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) (1911 - 1984م)⁽²⁾ في شعره إلى أن غدا جزءاً لا يتجزأ من أدب الجهاد والكفاح؛ وأدب المقاومة في أجناسه كلها بما فيها الأدب الشعبي من أهازيج وأغانٍ؛ وقصائد القوالين والحكايات الموروثة عن الآباء والأجداد، والحكم والأمثال، فضلاً عن بقية الفنون الأخرى كالرسم الذي تحول فيه (ناجي العلي 1936 - 1987م) إلى أيقونة مقاتلة؛ كما تجلت النكبة وقضية فلسطين بشكل فني مؤثر من

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 19/4 - 21.

(2) انظر: المرجع السابق 23/4.

خلال ما أبدعه الفنان التشكيلي الفلسطيني - الذي قضى محترقاً - مصطفى الحلاج حيث كان الحصان المطعون والناهض بإرادة وكبرياء رمزاً دائماً الحضور في أعماله الفنية الخالدة... وكذلك هي إبداعات فرقة العاشقين في الأغاني والموسيقى⁽¹⁾... وأياً ما يكن شأن هذه الفنون فإننا سنركز على الشعر الفصيح وبعض القصص والروايات. وهذا دون غيره يفرض علينا الإشارة المركزة إلى مرحلتين هامتين تاريخياً وسياسياً وفكرياً واجتماعياً قبل حدوث النكبة في (1948م):

1 - المرحلة الأولى: مرحلة إرهابات النكبة (1798 - 1918م):

تعد هذه المرحلة شرارة الانطلاق إلى إنشاء (وطن قومي لليهود) في فلسطين؛ حينما بدأت الأفكار تظهر هنا وهناك لحل مشكلة اليهود في أوروبا وبخاصة في فرنسا وألمانيا وبريطانيا. فاليهود - كما قال أستاذ التاريخ في جامعة تل أبيب البروفسور (شلومو ساند) في كتابه (اختراع الشعب اليهودي) - "عاشوا في تنقل وترحال على امتداد الأيام والقارات ووصلوا إلى أقاصي الدنيا، وفي نهاية المطاف استداروا مع ظهور الحركة الصهيونية كي يعودوا جماعياً إلى وطنهم الذي شردوا منه". ويرى أن هذا الأمر ما هو إلا "خرافة قومية" فاقعة، منهم؛ فهم "لم يشكلوا أبداً شعباً أو قومية، وإنهم ليسوا كذلك حتى الآن".

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 27/4 وما بعدها ومجلة الهدف 34 - العدد 1429 - (صوت ناجي العلي وبوصلة الوطن) والعدد 1441 - ص 47 - مقال (ناجي العلي مسيرة نضال...).

ولهذا فقد غاص في أعماق التاريخ محاولاً إيجاد شعب يهودي، فلم يجد "شعباً عرقياً" يحمل أصولاً واحدة⁽¹⁾؛ فاليهود ينتمون إلى شعوب شتى ودول عدة. وعلى الرغم من ذلك كله فإن عدداً من الصهاينة؛ ولاسيما في ألمانيا أخذوا على عاتقهم مهمة اختراع الشعب اليهودي واختلاق قومية يهودية عنصرية توسعية استيطانية⁽²⁾، واختيار فلسطين وطناً قومياً لها.

ويؤيد هذا كله ما ذهب إليه رئيس قسم الانثروبولوجيا في المتحف الأمريكي الأستاذ (هاري. ل. شايبرو) في دراساته التاريخية للشعب اليهودي حين قال: "إن الاختلاف العريض في الصفات الجسمية للسكان اليهود، وتنوع الجينات الموروثة المتوافرة في فئات دمهم تجعل إدراجهم تحت أي تصنيف عرقي موحد التناقض بعينه"⁽³⁾.

ومن ثمة لا يمكن أن يشكّلوا جنساً واحداً بوصفهم يتكلمون ما يزيد على سبعين لغة، وهم الذين قدموا من تسعين بلداً في العالم؛ وفيهم السود والصفرة والبييض... ما يفيد بأنهم لا يكونون أمة واحدة... ما جعل الحركة الصهيونية تتبنى جملة من الأفكار لتوحيدهم.

(1) انظر: كتاب (اختراع الشعب اليهودي) شلومو ساند - المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار) - رام الله - أيلول 2010 وهو صادر - أيضاً - عن المكتبة الأهلية بعمان والصهيونية 9 - 13 ومجلة الطلائع 10 - 12 - العدد 1577 - ومجلة فلسطين المسلمة 15 - العدد 6.

(2) انظر: الموسوعة الفلسطينية 4/6 - 7/ و 103 و 534 - 549 والصهيونية 13 - 18 والمقاومة 60 - 92.

(3) الصهيونية 15 - 16.

ولا شيء أدل على هذا مما كتبه (ليوبنسكير) في كتابه (التحرر الذاتي) يسوغ فيه إقامة وطن لليهود؛ ومما ورد فيه "إن اليهود قوم شبح لا وطن لهم، وبما أن الإنسانية تكره الأشباح لذلك تنزل بهم الشعوب الاضطهاد والتعذيب والحل - إذاً - يكمن في تحويلهم من قوم شبح إلى قوم طبيعي. وهذا يتم إذا ما أقاموا وطناً لهم في مكان ما عندئذ يتوقف اضطهادهم"⁽¹⁾ وإذا كان الغرب ومفكروه يؤمنون بذلك كله فإن الفكر الصهيوني لم يتغير عن منطلقاته التي ورثوها من (التلمود) المزور والمزيف، وهم يرون أنفسهم فوق الشعوب ومما ورد فيه:

- نطفة غير اليهودي كنطفة باقي الحيوانات.
- يجب على كل يهودي أن يبذل (كل قوته) لمنع استملاك باقي الأمم في الأرض، لتبقى السلطة لليهود.
- لو لم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة في الأرض.
- الخارجون عن دين اليهود خنازير نجسة.
- أرواح اليهود عزيزة عند الله بالنسبة لباقي الأرواح التي هي أرواح شيطانية فهي تشبه أرواح الحيوانات.
- اليهودي لا يخطئ إذا اعتدى على عرض غير اليهودية لأن المرأة غير اليهودية (تعدُّ بهيمة) ولليهود الحق في اغتصاب النساء غير اليهوديات.
- الزنا بغير اليهود ذكوراً أم إناثاً لا عقاب عليه لأنهم من نسل الحيوانات"⁽²⁾.

(1) الصهيونية 31.

(2) انظر: مجلة إلى الأمام - ص 36 - العدد 2408 - آب / 2011م.

وعلى الرغم من ذلك كله فإنهم ما زالوا يخدعون العالم عامة وأوروبا خاصة لإقامة وطن لهم في فلسطين. وتعدُّ حملة نابليون بونابرت على مصر إحدى محطات البداية للنكبة: وتحقيق الوطن القومي المنشود للحركة الصهيونية⁽¹⁾؛ وكانت قوات فرنسية قد توجهت إلى الإسكندرية بتاريخ (1798/6/28م) ونزلت بشواطئها في (1798/7/1م). وقد استعمل نابليون سياسة الخداع والترغيب لاستمالة أهل مصر... وصمم على كسر شوكة الإنكليز واحتلال فلسطين وسورية فوجه قواته إلى غزة ويافا فقتلت من قاومها من السكان وسلبتهم أموالهم... ثم توجهت إلى (عكا) في (1799/3/18م) وحاصرت أسوارها المنيعة مدة شهرين تكبدت قواته خسائر كبيرة انسحبت على إثرها، وكانت بداية الانهزام والخروج مدحورة من مصر (1803م). وقد سجّل هذا الحدث التاريخي الشاعر المصري علي محمود طه، ومما جاء في مطلع قصيدة له قوله:⁽²⁾

عكاً في الساحل الشرقي شامخة تُطاول النجم أبراجاً وأسوارا
كم غرّرت بالغزاة الصيّد والتقتت إلى جحافلهم هزّواً وإصغارا

ولا بأس في هذا المقام أن نشير إلى أن نابليون يعدُّ أول شخصية أوروبية غير يهودية تعهدت بإقامة وطن لليهود في فلسطين إبان حصاره عكا عام (1799م)؛ سابقاً بهذا وعد (بلفور) الذي جاء بعده بمئة

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 5/6 وفلسطين (الأرض والتاريخ والمقاومة) 15.

(2) علي محمود طه (شعر ودراسة) 329 - 331.

وثمانية عشر عاماً، علماً أن نابليون هو من أصدر (إعلان حقوق الإنسان والمواطن) الفرنسي في (1789م) الذي كفل حرية الأديان، فحضر به اليهود من انعزالهم (الغيتو) حين شجعهم على الانخراط بالمواطنة الفرنسية... وإذا كنا نعتقد بأن (نابليون) قدّم خدمة جليلة لليهود حين جعلهم على قدم المساواة مع غيرهم في إطار مبدأ المواطنة فإننا نرى أن الطبيعة اليهودية في الانعزال ظلت ثابتة في ثقافتهم، وكذلك كانت حياتهم في كل مجتمع وكل زمان ومكان... وكانهم مصممون على ألا يعرف أحد شيئاً عنهم...

ولا مرء لدينا - أيضاً - في أن اليهود قد استغلوا حملة (نابليون) حين قدّموا المال اللازم الذي احتاجت إليه⁽¹⁾ إذ قيل: إن المليونير اليهودي اللورد (ماير روتشيلد) هو مَنْ مَوَّلها وأقنع نابليون بذلك العهد الذي يشبه وعداً لليهود بتوطينهم في فلسطين وما زالوا يبجلونه حتى اليوم، ونصّه "أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه اسمه ووجوده القومي، وإن كانت قد سلبته أرض الآباء والأجداد. إن مراقبي مصائر الشعوب هم فقط أدركوا أن عتقاء الله سيعودون لصهيون، وهم يغنون، وسيولد الابتهاج لتملكهم الإرث دون انزعاج فرحاً دائماً في نفوسهم. لقد نسي ذلك العار تحت قيد العبودية والخزي الذي أصابهم منذ ألف عام، لقد كانت الظروف غير ملائمة للتصريح بمطالبكم والتعبير عنها، بل وإرغامكم على التخلي عنها، فإن فرنسا تقدم إليكم - أيها

(1) انظر: أحجار على رقعة الشطرنج (التطبيق العملي لبروتوكولات حكماء صهيون) 21 و 60 و 62 و 74 و 106 و 108 ومن القدس إلى غزة 22 - 23.

الإسرائيليون - الفرصة في هذا الوقت لإعادة تأسيس أورشليم كما كانت في الماضي؛ تقدم لكم إرث إسرائيل في هذا الوقت بالذات⁽¹⁾. ونجح (روتشيلد) في هذا الأمر كما يشير إليه (إيلي ليفي أبو عسل) حين قال: "كانت فكرة إعادة اليهود إلى فلسطين في طليعة المرامي والمشاريع الاجتماعية السامية التي كانت تجول في مخيلة نابليون الوقادة ويطمع في تحقيقها حيال المسألة الشرقية..." ومن ثم وضع الاقتراح بالاتفاق مع فرنسا لإقامة وطن يهودي يمتد من إقليم الوجه البحري في مصر إلى عكا... وإذا كانت الفكرة قد ذهبت أدراج الرياح نتيجة انهزام الحملة الفرنسية⁽²⁾ فإن أفكار الحركة الصهيونية التي ابتكر مصطلحها (ناتام برنباوم) عام (1891م) - وفق معيار علم الأحياء - ظلت تراود الصهاينة، واستمروا في تأسيس فكرة (أرض الميعاد) و (شعب الله المختار) في الأذهان⁽³⁾، وزعموا أنهم أُخرجوا منها بغير حق؛ وتعرضوا لأنماط من السبي والتعذيب، مستتدين في ذلك إلى الخرافات الواردة في (التوراة) والأدبيات اليهودية والصهيونية فضلاً عن ظهور ما سمي (حركة أحياء صهيون)⁽⁴⁾ في أوروبا الشرقية... وكانت من أجل التخلص من (الغيتو) الذي عانى منه

(1) المأزق العربي - 9.

(2) حينما أخفق نابليون بتحقيق وعده حاول اليهود قتله انظر: (الحملة الفرنسية على مصر - موقع <https://ar.wikipedia.org>) وانظر الصهيونية 68 - 72..

(3) انظر: الهولوكست 11 - 12.

(4) انظر: الموسوعة الفلسطينية 8/6 والمنظمات الصهيونية 79 والهولوكوست 27 والصهيونية 29 - 30.

اليهود في أوروبا علماً بأن اليهود هم الذين اختاروا العزلة لأنفسهم⁽¹⁾، كما يثبته الكاتب الروسي (فيدور دوستوفسكي 1821 - 1881م) حين تحدث عن الملامح اليهودية وهي "عدم التبديل أو التحول على مستوى المعتقد الديني؛ عدم الامتزاج مع الآخرين؛ الثقة العمياء بأنه لا يوجد على الأرض سوى شخصية واحدة هي الشخصية اليهودية، أما الآخرون - وبالرغم من وجودهم إلا أنه يتوجب عدم أخذهم بالحسبان: اخرج من الشعوب واحتفظ بشخصيتك المنفردة، واعلم أنك الوحيد عند الرب؛ اسحق الآخرين، أو حولهم إلى عبيد، أو استغلهم كما تشاء، ولا تختلط بأحد، وحتى عندما تُطرد من الأرض وتفقد شخصيتك السياسية؛ حتى عندما تتشرد في مختلف أنحاء المعمورة وبين مختلف الشعوب"⁽²⁾... ولعل ذلك كله جعلهم يعقدون العزم على الهجرة إلى فلسطين منذ وقت مبكر؛ فواجهوا مقاومة شديدة⁽³⁾. فأوروبا أجمعت أمرها على إنشاء عدد من المشاريع لحل المسألة اليهودية على حساب العرب أو غيرهم، ثم وقع الاختيار على فلسطين لحسابات أخرى كثيرة، وقامت فرنسا وبريطانيا، - وعلى نحو كبير ألمانيا - بكل ما ينبغي لإنشاء الدولة اليهودية، التي تحقق لهذه الدول حل (المشكلة الشرقية 1840 - 1847م) وغيرها كما صرح به رئيس وزراء بريطانيا - آنذاك - (بالمرستون) قبيل انعقاد مؤتمر لندن عام (1840م)

(1) خصص الأستاذ يوسف سامي اليوسف كتاباً لذلك بعنوان (الغيتو الصهيوني)

انظر: فيه 16 - 48، ثم انظر: شذوذ الغيتو وانحطاطه في الفصلين الثاني والثالث.

(2) انظر: المسألة اليهودية 17 - 18.

(3) انظر: ملامح في الأدب المقاوم 29 - 30.

إذ كان يعتقد "بأن بعث الأمة اليهودية يعطي القوة للسياسة البريطانية"⁽¹⁾.

ولهذا وغيره قررت أوروبا احتلال فلسطين؛ وتعاونت مع مثقفي الصهاينة لاختراع شعب⁽²⁾، له مواصفات الشعوب الأصيلة؛ واختراع دولة تجمعهم مع الإشارة إلى أنه لا يملك أي صفة تحقق له هذه البنية الحيوية التاريخية الحضارية من ثقافة وتراث ولغة وعناصر أخرى جامعة... ما دفع الصهيونية إلى البحث الحثيث عن كل السبل لإنجاح فكرتها. وكان المتعصب الصهيوني (تيودور هرتزل - 1860 - 1904م)⁽³⁾، قد قام بدور كبير في هذا الشأن⁽⁴⁾، تجسّد - آنذاك - بإصدار كتابه المعروف (الدولة اليهودية) سنة (1896م) ثم دوره النشط في عقد مؤتمر (بازل 1897م) في (سويسرا) الذي نجح في إيجاد المناخ المناسب لتأسيس الحركة الصهيونية وتحقيق أهدافها بتجزئة المنطقة العربية؛ ولا منجاة لليهود إلا بإيجاد وطن لهم في فلسطين بوصفها أرضاً بلا شعب⁽⁵⁾. ولهذا قال هرتزل في ذلك المؤتمر: "لقد بدأنا بوضع اللبنة الأولى لبناء الدولة

(1) انظر: الصهيونية 36 - 38.

(2) انظر: كتاب اختراع الشعب اليهودي؛ والموسوعة الفلسطينية 6/6 - 9 والهولوكوست 35 - 59 و 79 - 81 والصهيونية 19 - 30.

(3) انظر: دولة اليهود 12 - 18 من المقدمة و 91 - 99 من الكتاب؛ وبحثنا (مصير القدس في ظل مشروع التهويد - 13) ومن القدس إلى غزة 23 - 24.

(4) ذهب كثير من الباحثين إلى أن (هرتزل) يعد المؤسس الحقيقي للحركة الصهيونية انظر: مجلة العودة - ص 30 - 31 - مقال (باطل الميعاد... د. حسن الباش).

(5) انظر: الموسوعة الفلسطينية 6/320 - 331 والهولوكوست 12 - 13 و 49 - 60 و 107 - 105 ومشروع القومية العربية إلى أين 204 - 206.

اليهودية... وإذا قُدِّرَ لنا وأخذنا القدس فسوف أمحو وأزِيل كل أثر لا يمتّ لليهود بصلة...".

ولعل هذا ينبثق أيضاً من مفهومهم للغوييم (الأغيار) كما أشرنا إلى مضمونه قبل قليل... فالحركة الصهيونية ترى أن الشعوب مسخرة لليهود، فلا يستوي الطرفان أبداً، فهناك فرق شديد بين (نحن) و(الغوييم - الأغيار)، وهناك تمييز حقيقي بين اليهودي وغيره من أبناء البشر. وقد أنكر عليهم هذا الاتجاه العنصري ابن عقيدتهم المفكر (نعوم تشومسكي) إذ قال: "ذلك هو فسادهم، يجب أن يكون هناك شيء متعلق بهم من شأنه أن يجعلهم مختلفين عني، هي ليست مجرد عنصرية، بل سقوط روح الإنسان إلى دركها الأسفل"⁽¹⁾.

وبناء على ما تقدم كله يأخذنا الحديث إلى أن قوافل الهجرة اليهودية بدأت تتجه إلى فلسطين لاستيطانها رويداً رويداً، ومن ثم اغتصابها كاملاً...؛ وتعهدت اتفاقية (كامبل بنرمان - 1907م)⁽²⁾ رئيس وزراء بريطانيا آنذاك بتجزئة المنطقة لتحقيق أهداف الحركة الصهيونية علماً أنها نصت على "إنشاء حاجز بشري غريب على الجسر الذي يربط إفريقيا بآسيا في شرق المتوسط لحماية المصالح الاستعمارية"⁽³⁾. وما لبث المشروع الصهيوني أن تجلّى للعيان في مواجهة

(1) انظر: مجلة الهدف - ص 25 - العدد 1429 - دمشق - (5/9/2010م) وفلسطين (الأرض والتاريخ والمقاومة) 14.

(2) انظر: سورية (الاستهداف والمؤامرة) 24 - 25.

(3) انظر: ملحق جريدة البعث - حوار - ص 7 - 9 - العدد 68 - دمشق - الاثنين 5/5/2008م - مقال (في الذكرى الستين للنكبة) وفلسطين 19 - 21.

المشروع القومي وفق ما ذكره الباحث اللبناني نجيب عازوري سنة (1905م)⁽¹⁾.

وأخذت تتضح مفاهيم جدلية العام والخاص في القضية الفلسطينية وقضايا المنطقة منذ وقت مبكر؛ يمثل ما برزت المخاوف من الهجرة المنظمة لليهود إلى فلسطين تحت أنظار دول الانتداب الأوربية وبخاصة بريطانيا⁽²⁾... وكان (حاييم وايزمن - 1874 - 1952م) قد توجه إلى فلسطين لتأسيس شركة (تطوير أراضي فلسطين) في يافا سنة (1916م).. وهي السنة التي عقدت فيها اتفاقية (سايكس - بيكو)⁽³⁾ التي حدّثنا عنها الشاعر حسن البحيري المولود في حيفا سنة (1921م) والمتوفى بدمشق سنة (1998م) من بعد في قصيدة له؛ ومنها:⁽⁴⁾

لئن قسّموا الدار التي نحن أهلها بما حفلت من وُدَيّةٍ ومناقب
فما قسّموا ما في الجوانح من هوىٍ مكامنه بين الحشا والترائب
وكيف تقرأ القدس في حُضن هَجْمَةٍ وببيروت ترميها سهام المصائب
وهل تستقر النار في قلب جَلْقٍ وعمان عنها في بروج السحائب
ستبقى ريوع الشام تمطر بالدماء إلى يوم نُعليها متون الكواكب

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 5/6 و 322 - 350 وقضايا في الفكر السياسي

والقومي (الفصل الثاني - 85 - 122).

(2) انظر: المرجع السابق 10/6 - 15.

(3) انظر: سورية (الاستهداف والمؤامرة) 26.

(4) الوطنية في شعر حسن البحيري 58.

فهذا النص يثبت أن الاتفاقية المذكورة نصت على توزيع المنطقة بين فرنسا وبريطانيا؛ وتحقيق أهداف الحركة الصهيونية صراحة وفق إعلان وزير خارجية بريطانيا اللورد (آرثر جيمس بلفور - 1848 - 1930م) في وعده المشؤوم بتاريخ (1917/11/2م)، ونصّه: "عزيزي اللورد روتشيلد: يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالتة التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أمانى اليهود الصهيونية، وقد عرض على الوزارة فأقرته: إن حكومة جلالة الملك تتظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يُفهم جلياً أنه لن يُؤتى بعمل من شأنه أن يضير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى.

أكون ممتناً لكم لو أبلغتم هذا التصريح إلى الاتحاد الفيدرالي الصهيوني"⁽¹⁾، وقد أيدته الكونغرس الأمريكي بالإجماع"⁽²⁾ وقد وعى الأدباء حقيقة هذا الوعد وخطره فحذروا منه، كما حذروا من آفات الفقر والجهل؛ كما قال حسن البحيري:⁽³⁾

(1) انظر: الوطنية في شعر البحيري 83 والموسوعة الفلسطينية 6 / 12 و 10 - 15 و 549 - 554 و(الهولوكوست 180) وكفاح عرب فلسطين 15 وسورة (الاستهداف والمؤامرة) 27.

(2) انظر: الوطنية في شعر حسن البحيري 105.

(3) الوطنية في شعر حسن البحيري 112 وانظر - مثلاً - الأعمال الشعرية الكاملة (يحيى بَرُوق) 155/1.

يا أيها الزارون - تنديداً - على بلفور وعدا
أين الذي أعدتموه لتنقذوا الوطن المصدى
الشعب يثقله الضنى وينوء بالأغلال جهداً
والفقر يغمره بما يبكي فؤاد الصخر وجداً
والجهل يلبسه من الآلام والأسقام بُرداً

ولم تلبث بريطانيا أن احتلت فلسطين بالكامل عام (1918م)...
ثم توجه الجيش البريطاني - بعد ذلك - إلى القدس بقيادة اللورد
(ادموند اللنبي) ومعه فيلق يهودي ... وقد تنبأ الأمير اللبناني (شكيب
أرسلان - 1869 - 1946م) بحدوث النكبة قبل وقوعها. وحينما تنبأه
على الخطر الصهيوني فإنه نبه - أيضاً - على وعد بلفور - قبل حدوثه -
حين استشعر الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وخروج العثمانيين خفية
من فلسطين؛ فكتب المقالات بهذا الشأن، وحذر من الخلاف والشقاق
بين أبنائها، وأرسل الرسائل للزعماء العرب يشرح لهم أبعاد الهجرة
الصهيونية، وظل ذلك دأبه حتى مات⁽¹⁾. أما الشاعر المهجري (إيليا أبو
ماضي) فقد أنشد - قبل عام 1940م) - قصيدة طويلة بعنوان
(فلسطين)؛ وهي قصيدة تنتمي إلى فن المنذرات والعتاب الذي يصل إلى
حدّ الهجاء حين عرّض بوعد (بلفور) الذي قدّم لليهود أرضاً ليست له؛

(1) انظر: مجلة العودة - ص 14 - العدد 56 - دمشق - أيار 2012م.

ثم هدّد المهاجرين اليهود بأنها ستصبح قبراً لهم إن لم يرجعوا من حيث
جاؤوا، ومما قال فيها⁽¹⁾:

ديار السلام وأرض الهنا يشقُّ على الكل أن تحزنا
وكيف تطيب الحياة لقوم تُسدُّ عليهم دروب المنى
بلادهم عُرضة للضياع وأمتهم عُرضة للفنا

ثم قال:

فقل لليهود وأشياهم لقد خدعتكم بروق المنى
ألا ليت بلفور أعطاكم بلاداً له لا بلاداً لنا
فلندن أرحب من قدسنا وأنتم أحبُّ إلى لُندنا
أيسلب قومكم رشدهم ويدعوه قومكم محسنا
ويدفع للموت بالأبرياء ويحسبه معشر دينا
فليست فلسطين أرضاً مشاعاً فتعطى لمن شاء أن يسكنا
وإن تهجروها فذلك أولى فإن فلسطين ملك لنا

(1) إيليا أبو ماضي (الأعمال الشعرية الكاملة) - 790 - 792 وانظر - أيضاً - (الوطنية
في شعر حسن البجيري 12 و 108 - 110).

وكانت لأجدادنا قبلنا وتبقى لأحفادنا بعدنا
ولما أبيضتم فأوصيكم بأن تحملوا معكم الأكفنا

وبهذا صارت قضية فلسطين قضية عربية خاصة وإنسانية عامة حين تحوّلت الهجرة اليهودية إلى استعمار استيطاني يرمز إلى كل أشكال الاحتلال والقهر؛ وشرعت تعبر عن الظلم الفادح الذي حاق بالشعب الفلسطيني، ظلم يتجدد بالجرح النازف في النفس والجسد من المصائب والآلام؛ ما فرض على هذا الشعب مقاومة كل آثاره بوصفها ضرورة وخياراً وجودياً. وتعالّت الأصوات برفضه صادحة بالثورة والتمرد على تلك الهجرة وعلى الانتداب البريطاني المحتل التي رعاها. وبمعنى آخر أصبحت القضية الفلسطينية منذ وعد بلفور قضية عربية ذات أبعاد نضالية شتى بدأت بالكلمة والموقف حين راح الشعب العربي يرى أن فلسطين تؤخذ من أبنائها في حالة من الذهول والعجز جزءاً تلو الآخر؛ وهم غير قادرين على مواجهة آلة الفتك الصهيونية والبريطانية... وفق ما نراه عند أحمد محرم نفسه في قوله من قصيدة بعنوان (وعد بلفور) منها: (1)

تلك العروبة جرحها يجري دماً من يمنع الإسلام أن يتألم
هذا تراث محمد في قومه أمسى بأيدي الناهبين مُقسماً
أكر السيوف عليه والدم حوله حرّان يصرخ: أين أبطال الحمى؟!

(1) انظر: مجلة زهرة المدائن (ص 20 - 21)؛ وانظر الموسوعة الفلسطينية 72/4.

فهذه القصيدة تفخر بالشهداء الأبطال الذين قضوا في سبيل فلسطين، وتتعى على الأحياء عدم الاقتداء بهم؛ ما فجر في نفسه كوامن الأسى واللوعة، وبخاصة حين مضى (بلفور) يقسم تراث العروبة على أعدائها، ولا أحد يفعل شيئاً إلا إقامة أيام للحداد يبكي فيها فلسطين في ذكرى الوعد المشؤوم كما حدث في تحديد يوم للحداد في البلاد العربية بتاريخ (1945/11/2م) وأنشد فيه علي محمود طه قصيدة له ومنها⁽¹⁾:

فلسطين لا راعتك صيحة مغتال سلمت لأجيال وعشت لأبطال
ولا عزك الجيل المفدى ولا خبت لقومك نار في ذوائب أجيال

وقال في آخرها:

سمعنا، خدعنا؛ وانتبهنا فحسبنا لقد ملت الأسماع فيثارك البالي
ويا أيها الغرب المواعد لا تزدد كفى الشرق زاداً من وعود وأقوال
شبعنا وجعنا من خيال منمق ومنه اكتسبنا ثم عدنا بأسمال

وهناك قصائد عدة تناولت الأحداث التي وقعت في أماكن متفرقة من أرض الوطن الفلسطيني بعد الوعد المشؤوم؛ الذي عدّ منطلقاً إلى المرحلة الثانية...

(1) انظر: - مثلاً - علي محمود طه (شعر ودراسة) 407 - 411.

2 - المرحلة الثانية: مرحلة تأسيس النكبة 1918م - 1948م:

توازي المرحلة الثانية مرحلة الاحتلال البريطاني لكامل فلسطين منذ السيطرة عليها في (18/9/1918م) وخروج الحكومة التركية في اليوم الثاني حتى سنة النكبة⁽¹⁾؛ من دون أن ننسى جريمة عصبة الأمم حين أقرت قرار الانتداب البريطاني على فلسطين في (24/7/1922م). فهذه المرحلة تعد الأبعث في التاريخ الإنساني إذ ارتكبت بريطانيا أفظع جريمة إنسانية بحق الشعب الفلسطيني؛ يوم زرعت الصهاينة في فلسطين نتيجة تبني التاريخ الأسطوري التلمودي؛ والخرافات اليهودية التي نسجها مخيال وهمي كاذب للأرض الموعودة وشعب الله المختار؛ كما ذكره أستاذ في الجامعة العبرية بالقدس (يتسحاك باعر) في كتابه (المنفى) الذي نشره عام (1936م)؛ وكان قد هاجر من ألمانيا إلى فلسطين عام (1929م). وهذا كله يخالف ما أكدته جملة الآثار التي حوتها المتاحف الفلسطينية؛ مثل (متحف الآثار الفلسطينية) في مدينة القدس، ومتحف صغير في قلعة عكا، وآخر في مسجد عمر قرب المسجد الأقصى. وكلها أثبتت تجذّر الشعب الفلسطيني في فلسطين منذ العصر الحجري حتى العصر البرونزي المتأخر (1600 - 1200 ق.م). وكذلك كان هذا الشعب في العصور اللاحقة مثل الرومانية والإسلامية، على حين لم تشر الآثار إلى أي مخلفات يهودية⁽²⁾... وعلى الرغم من ذلك فقد قُدّمت فلسطين لقمة سائغة إلى الصهاينة الذين طفقوا يتوافدون إلى فلسطين سرّاً وعلانية؛ وبأسلوب

(1) انظر: الوطنية في شعر حسن البجيرى 34 - 35.

(2) انظر: من القدس إلى غزة 32 - 33.

منظم غالباً؛ وفق سياسة استيطانية مدبّرة ومبيّنة كما يتضح من قول (جابوتسكي) الصهيوني المتطرف "إننا سنطرد العرب من فلسطين وشرق الأردن وسنقذف بهم في الصحراء وسنبني الدولة اليهودية"⁽¹⁾، وخطاب ديفيد بن غوريون يوم السابع من آب (1937م)؛ ومنه قوله: "يعتبر ترحيل السكان من محاور برنامج الاستيطان الشامل؛ ولحسن طالعنا فإن العرب يسكنون مناطق شاسعة بائسة. إن تعاضم قوة اليهود في البلاد سيسمح بتدعيم إمكانية ترحيل واسعة النطاق. وعليكم تذكر أن هذه الفكرة تحمل صبغة إنسانية صهيونية حيث يتعلق الأمر بترحيل قسم من السكان إلى وطنهم الخاص واستيطان أراضٍ غير مسكونة"⁽²⁾. وهذا الخطاب يوافق ما ورد في مذكرات (تيودور هرتزل) المكتوبة عام (1895م) وورد فيها: "يجب علينا القيام بانتزاع الملكيات بمهارة... سنسعى إلى دفع السكان باتجاه الجانب الآخر إلى الحدود، دون أملاكهم وأموالهم عن طريق تقديم فرص عمل في بلدان العبور وعن طريق منعهم من أي فرصة عمل في بلادنا، يجب أن نقوم بمصادرة الأملاك وطرد الفقراء"⁽³⁾. ومن ثم فإن المهاجرين الصهاينة عاشوا في فلسطين فساداً وتزويراً؛ وقتلاً وتدميراً⁽⁴⁾، وسعيًا حثيثاً لشطب الذاكرة الفلسطينية من الآثار والحياة والثقافة ومحو كل ما

(1) الصهيونية 81 وانظر فيه 82 - 86 - أقوال عدد آخر من الصهاينة.

(2) صحيفة البعث - ص15 - (نظرة جديدة إلى حرب 1948م) - العدد 14541 - دمشق - الأربعاء 2012/5/30م.

(3) انظر: المرجع السابق (البعث - ص 15) ومن القدس إلى غزة 26 - 29.

(4) انظر: مجلة زهرة المدائن (الحملات والآثار الغربية على فلسطين) - ص20 - 23 - العدد 27.

يتصل بالتاريخ الفلسطيني يدعمهم في ذلك كله عناية بريطانية رفيعة. وحين يقتربون آثاماً كبرى بحق الشعب الفلسطيني وتاريخه وثقافته يشددون على تضخيم مصائبهم التي أوقعتها النازية بحقهم حتى صارت المحرقة (الهولوكوست) مرتكزاً لاستدراج عطف العالم لمساندتهم وإن اعتدوا على الشعب الفلسطيني... وكذا تراهم يهاجمون كل من يعادي السامية؛ وربما يحلون دمه بينما يتمادون في اقتراف المجازر الوحشية في جنبايات الأرض الفلسطينية.... ويحلون مكان المذبوحين والقتلى قطعاناً من الصهاينة القادمين من أصقاع العالم... فعلية الاستيطان الصهيوني قائمة على تفرغ الأرض من سكانها الأصليين وإحلال الصهاينة مكانهم؛ وسرقة كل ما يقع في أيديهم؛ وادعائه لأنفسهم في صميم عملية تهويد مستندة إلى التزوير والتضليل والتشويه... فلما مارست بريطانيا الغطاء السياسي لأعظم هجرة استيطانية للصهاينة إلى فلسطين منذ وعد بلفور ساعدت الصهاينة في اقتلاع أبناء فلسطين الأصليين منها⁽¹⁾؛ وارتكاب كل أصناف التعذيب والعنف بحقهم. وقد أيدتها الحكومة الأمريكية بارتكاب هذه لجرائم؛ كما نراه في تصريح الرئيس الأمريكي (روزفلت) عام (1944م) الداعم "لهجرة يهودية غير محددة إلى فلسطين؛ وإقامة دولة يهودية ديمقراطية فيها"⁽²⁾.

فالرئيس الأمريكي يحاول خداع العالم بأن اليهود يقيمون دولة ديمقراطية، على حين عميت بصيرته عن السماح لمئات الآلاف من

(1) انظر: الصهيونية 35 - 61.

(2) انظر: الصهيونية 60 ومن القدس إلى غزة 24 - 26.

الصهاينة بالهجرة إلى فلسطين وارتكابهم المجازر الهمجية الكبرى في السنوات التالية. ولكن الشعب الفلسطيني لم يهدأ يوماً، وعقد العزيمة على مواجهة الانتداب البريطاني وعصابات الصهاينة المتوحشة وكل التصريحات القبيحة.

وقد تنبه إبراهيم طوقان للموجات الصهيونية المهاجرة إلى فلسطين والأخطار الناجمة عنها فدعا إلى الحد منها كما نراه في قوله: (1)
يهاجر ألف ثم ألف مهربي ويدخل ألف سائحاً غير آيب
بني وطني هل يقظة بعد رقدة وهل من شعاع بين تلك الغياهب؟

وكذلك تألم الشعراء لما يحدث للشعب الفلسطيني من مآس كما نراه في قصيدة (حبيبتي فلسطين) لحسن البحيري، ومنها قوله: (2)

فلسطين يا لهفة في الضلوع يعزّ على الدهر سلوانها
ويا حرقة في مسيل الدموع يفيض من القلب هتأنها
ويا حسرة لو غدت في الجبال لكان تصدّع صفوانها

(1) ديوان إبراهيم طوقان - 71 وإبراهيم طوقان 293 وكفاح عرب فلسطين 63 - 75

والبحيري 56.

(2) البحيري 48.

وأضحى الشعب الفلسطيني يمارس دفاعه الشرعي والخلقي عن وجوده، وحياته؛ وتمسكه بأرضه وأرض آبائه وأجداده، ولم تخدعه أساليب الإغراء والترهيب والإذلال التي اتبعها الانتداب البغيض. وقد مارس ذلك الشعب المقاومة بوجهيها الإيجابي بالكلمة والنفس، وبالسلب؛ وفق المنهج الذي اعتمده المناضل والزعيم الهندي (المهاتماغاندي). وأياً ما يكن اتجاه الأدب المقاوم في هذه المرحلة فقد استطاع تقديم القضية الفلسطينية بوصفها قضية نضالية سياسية كما ألفيناه - مثلاً - عند الشاعر مطلق عبد الخالق (1910 - 1937م) وعبد الرحيم محمود (1913 - 1948م) وإبراهيم طوقان (1905 - 1941م) والقاص أحمد شاكر الكرمي (1894 - 1927م) وخلييل بيدس، (1874 - 1949م) الذي أصدر أول رواية فلسطينية في القدس ونشرت في مطبعة دار الأيتام السورية عام (1920م) بعنوان (الوارث)⁽¹⁾، وبلغ حجمها مئة وأربع صفحات، وفقدت بعد نكبة (1948م). وهي تتحدث عن شاب حلبي يعيش في القاهرة؛ مع عمه الثري. وكان أحب راقصة يهودية، حاولت أسرتها الاستيلاء على ثروة هذا الشاب بوصفه الوريث الوحيد لعمه. وهي حين تتناول ذلك تعرض لمدي الكراهية التي يخفيها الصهاينة تجاه العرب. وعلى الرغم من ريادة (بيدس) لفن الراوية في فلسطين غير أنه لم يخرج فيها عن ظاهرة التجريب البدائية وإن اختلفت بالموضوع النضالي؛ ولم يكن تأثيره فيمن بعده من القصاص والروائيين معادلاً أو مماثلاً للتأثير الذي أحدثه من جاء بعده مثل (إميل

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 141/4 - 143 و 149 وجريدة تشرين - ص 11 - العدد 11130.

حبيبي) وتلامذته ومنهم (محمد نفاع، ومحمد علي طه)، علماً أنهم - جميعاً - لم يخرجوا عن القواعد الفنية التي شاعت في القصة العربية عامة. فقد ساد في سردهم الروائي وعي واقعي تاريخي موضوعي لافت، وهو يتراوح بين التسجيل الواقعي وأسطرته ورمزية التاريخ، من دون أن يهملوا الاستفادة من التراث كما نجده في مجموعة (محمد نفاع) (ودية وريح الشمال) ومجموعة (محمد علي طه) (جسر النهر الحزين)⁽¹⁾. كان كل أديب مقاوم أو مثقف ملتزم، أو وطني حر يحاول مواجهة الاحتلال البريطاني وأعدائه من الصهاينة بكل الوسائل وكشف محاولات الصهاينة بسرقة الأرض والتراث والثقافة والثروة... ولهذا مورس العنف والإرهاب والاعتقال الانفرادي والجمعي على عدد من المبدعين والمثقفين، وذاقوا كؤوس المر من صنوف العذاب الهمجى، ومنهم من سُفك دمه كما حدث في ثورة البراق عام (1929م)⁽²⁾ وأحداث الثلاثاء الحمراء في (17 / 6 / 1930م) التي علق فيها على أعواد المشانق الشهداء الثلاثة عطا الزير ومحمد جمجوم وفؤاد حجازي. وكانوا قد كتبوا في اليوم السابق رسالتهم التاريخية المشهورة من غرفة الإعدام بسجن عكا؛ وهذا نصها: "الآن ونحن على أبواب الأبدية مقدمين أرواحنا فداء للوطن المقدس، لفلسطين العزيزة، نتوجه بالرجاء إلى الأمة العربية في فلسطين أن لا تنسى دماءنا المهرقة وأرواحنا التي ستترف في سماء هذه البلاد المحبوبة، وأن تذكر أننا

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 206/4 وجريدة تشرين - ص 11 - العدد 11130 -

دمشق - الاثين (2011/6/27م).

(2) انظر: ملامح في الأدب المقاوم 29 - 31 والموسوعة الفلسطينية 21/4.

قدمنا - عن طيبة خاطر - أنفسنا وجماعتنا لتكون أساساً لبناء استقلال أمتنا وحريتها، وأن تبقى الأمة مثابرة على اتحادها وجهادها في سبيل خلاص فلسطين من الأعداء، وأن تحتفظ بأراضيها فلا تباع للأعداء شبراً واحداً، وألا تهن عزيمتها، وألا يضعفها التهديد والوعيد، وأن تكافح حتى تنال الظفر. ولنا في آخر حياتنا رجاء إلى ملوك وأمراء العرب والمسلمين في سائر أنحاء المعمورة، ألا يثقوا بالأجانب وسياستهم، وليعلموا ما قال الشاعر بهذا المعنى (ويروغ منك كما يروغ الثعلب). وعلى العرب في كل البلدان العربية والمسلمين أن ينقذوا فلسطين مما هي فيه الآن من الآلام وأن يساعدها بكل قواهم. وأما رجالنا ولجنتنا التنفيذية وزعمائنا وشبابنا فلهم منا الامتنان العظيم على ما قاموا به نحونا ونحو أمتهم وبلادهم، فنرجوهم الثبات والمتابعة حتى تنال غايتنا الوطنية الكبرى... وأما عائلاتنا فقد أودعناها إلى الله والأمة التي نعتقد أنها لن تتساها. والآن بعد أن رأينا من أمتنا وبلادنا وبني قومنا هذه الروح الوطنية وهذا الحماس القومي فإننا نستقبل الموت بالسرور والفرح الكاملين ونضع حبل المرجوحة؛ مرجوحة الأبطال بأعناقنا عن طيبة خاطر فداءً لك يا فلسطين.

وختاماً نرجو أن تكتبوا على قبورنا: إلى الأمة العربية الاستقلال التام أو الموت الزؤام، وباسم العرب نحيا وباسم العرب نموت.

في 16 / حزيران سنة 1930.

الشهيد عطا الزير - الشهيد محمد جمجوم - غرفة الإعدام
شهيدك يا فلسطين فؤاد حجازي" (1).

(1) كفاح عرب فلسطين 55 - 56.

وبعد ذلك انطلقت أحداث عام (1933م) و(1935م)، وفي هذا العام بلغ عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين (62) ألفاً، وفيه زار سعود بن عبد العزيز القدس فقال الشاعر الفارس (عبد الرحيم محمود) مخاطباً إياه:⁽¹⁾

نجمُ السعودِ وفي جبينك مطلعُه أنى توجَّهَ ركب عزمك يتبعُه
والقوم قَوْمُك يا أمير إذا النوى فَرَفَّتْهُ آمالُ العروبة تجمعهُ
يا ذا الأمير أمام عينك شاعر ضُمَّتْ على الشكوى المريرة أضلعهُ
المسجد الأقصى أجئت تزوره أم جئت من قبل الضياع تودعه؟
حُرِّمَ تباح لكل أو كَعَّ أبقي ولكل أفاق شريدٍ أربعهُ

فالشاعر الفارس الذي نشأ في سفوح قرية (عنبتا)، وترى في أسيرة مناضلة تثور لكرامة وطنها أخذ يتقلب على لظى الانتداب وسفود دسائسه؛ وأيقن بأن حياة القهر والظلم والتوحش لا تروق له إلا إذا مجا آثارها وآثار مفاسدها، وطفق يحمل روحه المتمردة في ساحات النضال متمنياً أن يكون شهيداً كما قال في أبيات له، ومنها:⁽²⁾

(1) انظر: مجلة فلسطين المسلمة 54 - العدد (6) ومجلة زهرة المدائن ص 18 - العدد 17 - و ص 7 العدد 26 وكفاح عرب فلسطين 137 وانظر فيه 57 - 60 والبحيري 32 -

34 و 57 - 60.

(2) كفاح عرب فلسطين 140.

روحي عبءٌ مثقل عاتقي أيا ن ألقِ العباء عن عاتقي
تغلو على الناس ولكنني أبيعها للناس بالدانق
يا ليتني أشلاء في مهمه مناقشة الناعب والناعق

هكذا أضحت كلمته المقاومة قوية نافذة في النفوس؛ تغذي روح
الثورة فيها؛ وترسخ الأمل في الانتصار... وهي لا تقل تأثيراً عن بطولاته
في مواجهة المحتل وبلائه في ساحات المعارك. وظل ذلك ديدنه حتى
حقق له القدر أمنيته في الاستشهاد في معركة (الشجرة) عام (1948م)
وهو من قال في ذلك: (1)

احملوني... احملوني واحذروا أن تتركوني
وخذوني لا تخافوا وإذا مت ادفنوني

فإذا كان هذا الشعر ينتمي إلى رثاء الذات، ويتحسس معاني
التضحية بالنفس لتحرير أرضه أو نيل الشهادة - وفق ما كان يتطلع
إليه شعراء الخوارج في العهد الأموي - فإنه يوصي من يأتي بعده باتباع
منهجه في المقاومة واسترخاض النفوس لكي تبقى فلسطين عزيزة
منيعة، موقناً كل اليقين بأن الشجاعة والجرأة والإقدام طابع
مركوزة في نفوس أبناء قومه.

(1) جذور الهوية الفلسطينية - السيد نجم - /الشابكة وكفاح عرب فلسطين 104 -
110، و 141 - 142 والبحيري 60 والوطنية في شعر حسن البحيري 42 - 43.

أما الشاعر إبراهيم طوقان فقد توجه إلى القيادة الفلسطينية كي توقف حوارها مع الإنكليز لأنه حوار عقيم لا فائدة ترجى منه، واعتماد روح المقاومة التي أسسها المناضل (عز الدين القسام) في ثورته اللاهبة عام (1934م) وعرفت باسمه، ثم استشهد في (19/11/1935م)؛ فلا بد من استخدام الزنود القوية للحصول على الحق فقال: ⁽¹⁾

أنتم العاملون من غير قول بارك الله في الزنود القوية
ما جحدنا أفضالكم، غير أننا لم تزل في نفوسنا أمنياً

ومن ثمة نبه في سباعيته (مناهج) على المؤامرات الشريرة التي تحاك ضد وطنه حين ربط بين الخداع البريطاني والحلم الصهيوني، وأنشدها عام (1935م) مفصلاً فيها طريقة مواجهة الانتداب، ومنها: ⁽²⁾

أمامك أيها العربي يوم تشيب لهوله سود النواصي
مصيرك بات يلمسه الأداني وسار حديثه بين الأفاصي
مناهج للإبادة واضحات وبالحسنى تنفذ والرصاص

ولم يكتف إبراهيم طوقان بذلك بل راح يسخر من الانتداب البريطاني ومن بعض القوم الذين رأوا فيه حليفاً؛ فقال: ⁽³⁾

(1) مختارات من الشعر الفلسطيني 43 وانظر مجلة زهرة المدائن ص7 - العدد 26.
(2) ديوان إبراهيم طوقان 86 - 87 وانظر كفاح عرب فلسطين 63 - 75 والبحري 56
إبراهيم طوقان 293 ومختارات من الشعر الفلسطيني 43.
(3) ديوان إبراهيم طوقان 82 لا وانظر إبراهيم طوقان 85.

قد شهدنا لعهدكم بالعدالة وختمنا لجنسكم بالبسالة
وعرفنا بكم صديقاً وضيافاً كيفى ننسى انتدابه واحتلاله٩٩٩
وخجلنا من لطفكم يوم قلتم: وعد بلفور نافذ لا محالة

وظلت الحال على ما هي عليه حتى اندلعت ثورة (1936) الكبرى
بقيادة الشعب الذي قام بإضراب عام استمر ستة أشهر، ما دفع
الشاعر كمال ناصر (1925 - 1973م) إلى إنشاد قصيدة تحريضية
لاهية يتناول فيها ظلم الانتداب والصهاينة - وكان آنذاك شاباً يافعاً،
وواحداً من المشاركين فيها. ومما قاله فيها: ⁽¹⁾

هذي فلسطين الأبية في السلاسل والقيود
يقضي بها الخصم العنيد وليس تنفعها الجهود
قررت بها عين الجبان وكل نمام حسود
ما بين ظلم الإنكليز وبين طغيان اليهود
يا مكدونالد ترى تناسيت المودة والعهود
أيام كنت لنا الحليف وكنت ذا الخلل الودود
لا بد للتاريخ يوماً أن يعود وأن يسود

⁽¹⁾ انظر الآثار الشعرية 29.

فالنكبة بدأت أحداثها بوعد بلفور؛ وراحت تزداد دموية وبؤساً بعد ذلك حتى أخذ الشعب الأبي في فلسطين يخط بوعيه ونضاله طريق الثورة التي شارك فيها المثقفون والمبدعون وعامة الناس في عام (1936م)... وإذا كانت تنطلق من مفاهيم التمسك بالوطن، والاعتزاز بالانتماء العربي فإن هناك خيانات كانت تقع من الذين سقطوا في مستقع النذالة والجبن والضعف... وقد برز المناضل الحاج (أمين الحسيني) قائداً متميزاً؛ فأجبرت بريطانيا على صياغة الكتاب الأبيض الذي تعهدت فيه بإنشاء الدولة الفلسطينية خلال عشر سنوات.. ولكن المأساة استمرت، فما بقي للشرفاء من الشعب أمل إلا بالأطفال كما قال إبراهيم طوقان من قبل:⁽¹⁾

**أنتم المخلصون للوطنية أنتم الحاملون عبء القضية
في يدينا بقية من بلاد فاستريحوا كيلا تطير البقية**

وفي هذا الصدد لا يمكننا أن نتغافل عن قصيدة حسن البحيري (نشيد بلادي) التي يصف فيها بطولة الأحماد الذين يسيرون على هدي مفاخر الأجداد، ومما قاله:⁽²⁾

**إذا ما دعا داعي الدفاع عن الحمى
رأيت قوانا تملأ الأرض والسما
وصيحتنا يوم التقدم مثلما
روى أرضك الأجداد نرويك بالدماء**

(1) مختارات من الشعر الفلسطيني 43 وانظر مجلة زهرة المدائن ص 7 - العدد 26.
(2) البحيري 61.

ومن ثم أكد أدباء فلسطين وعيهم بما يجري حولهم، ولم
تخدعهم مؤامرات الانتداب البريطاني؛ ولا الخداع الذي تمارسه لجان
التحقيق المرسلة إلى فلسطين، كما يتضح لنا من خطاب حسن
البحيري الذي فضح ألاعيب لجنة التحقيق ومنه:⁽¹⁾

يا لجنة كبتنا قيودها الوحشية
لا تحسبنا عبداً لا نعرف الحرية
فنحن في الدهر أهل الـ جهاد أهل الحمية
نحن الألى قد رفعنا منائر المدنيه

وحيثما نتحدث عن الشعر الفصيح الذي واكب النكبة
والمقاومة فإننا نرى أن الشعر الشعبي المقاوم⁽²⁾ لم يتخلف عن ذلك؛
فهناك شعر شعبي متداول بهذا الشأن لا يقل شهرة عن قصيدة إبراهيم
طوقان في شهداء الثلاثاء الحمراء. فالقصائد الشعبية على اختلاف
موضوعاتها وأغراضها كانت تعبر عن هموم الشعب الفلسطيني في
مواجهة الاحتلال قبل النكبة وبعدها... وهي أناشيد نضالية ثورية تعبر
عن الجرح النازف من وعد بلفور والانتداب وما حدث بعده من مجازر
إبان النكبة كما نراه في الأبيات الثلاثة الآتية:⁽³⁾

(1) الوطنية في شعر حسن البحيري 57.

(2) انظر: الموسوعة الفلسطينية 21/4 و 67 - 113.

(3) انظر: الموسوعة الفلسطينية 71/4 وانظر فيه 73 و143.

أحكي جراح الوطن يا إخوتي العريان فاصغوا لحديثي ولا تتعجبوا لحالي
أول ما جاننا وعد بلفور والأعوان حطّ الوعد والعرب بالفغلة قبالي
فلسطين ربّك شهيد ع ذنبه الإخوان في دير ياسين - في قببة - في الاجمال

أما الرواية فقد رسمت صورة المآسي التي عانى منها الشعب الفلسطيني إبان الانتداب البريطاني؛ وبعده؛ وقد رصدت الباحثة (رئيسة شبلق) أشياء غير قليلة من تلك المرحلة في كتابها (تحولات المجتمع في الرواية الفلسطينية) وفق تسلسل زمني يقارب ما ذهبنا إليه؛ فخصّصت الفصل الأول للرواية بين الانتداب والنكبة (صفحة 12 - 42) والثاني للرواية بعد انطلاق الثورة الفلسطينية عام (1965م) (ص 44 - 119) كما خصّصت الفصل الثالث للرواية ومجتمع الانتفاضة (صفحة 122 - 147)؛...

وفي هذا المقام لا ننسى إحدى الروايات المهمة في الأدب الفلسطيني النضالي قبل النكبة وهي رواية (مذكرات دجاجة) لإسحق موسى الحسيني المنشورة عام (1943م) وفيها صورة دقيقة للألام الكبيرة التي عانى منها الشعب الفلسطيني إبان الانتداب، وكذلك كتب (جبرا إبراهيم جبرا) روايته (صراخ في ليل طويل قبل عام 1948م) وكتب (العدنان) رواية (السرير) عام 1946م. ولا تخرج الروايات الثلاث عن الاقتراب من الواقع والالتحام به، وإن كان البناء الفني الخيالي لم يرق إلى المستوى المرجو⁽¹⁾. وقدّم الحسيني لروايته

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 143/4 و 146 - 148 وإبراهيم طوقان 91 - 95.

قائلاً: "وهذه القصة تصف حياة دجاجة عاشت في بيتي، ووقعت بينها وبينني ألفة ومحبة؛ فكنت أطعمها بيدي وأرقب حياتها يوماً فيوماً... والأحداث التي ترويتها وقعت بالفعل وهي لا تتجاوز المؤلف من حياة الدجاجة. ولو قدر لصديقتي الدجاجة أن تتكلم بلغة الأناسي لما قالت غير ما تقرأ"⁽¹⁾.

وتتوقف هذه الرواية عند أحداث تاريخية كثيرة في إطار رمزي يتناول فيه الأحداث على لسان دجاجة تنطق باسمه، وإن كان الخيال لم يصل إلى ما كان يبتغيه...

وفي مقام الحديث عن بعض اتجاهات النكبة لا ننسى الشاعر إبراهيم طوقان الذي آلمه أن يجد بعض الشعراء العرب الكبار - مثل (أحمد شوقي (1868 - 1932م) وحافظ إبراهيم (1871 - 1932م)، وخليل مطران - شاعر القطرين؛ الشام ومصر (1871 - 1949م) الذي نظم قصيدة في السلطان العثماني عبد الحميد رامزاً إليه بـ(نيرون) - يشيخون وجوههم عن المصائب التي يرتكبها الاحتلال البريطاني ومن استجلبهم من شذاذ الأفاق بحق الشعب الفلسطيني بينما يلتفتون إلى غيرهم؛ فيخاطبهم قائلاً؛ ومنه⁽²⁾:

جئتم عاتباً بلا بل مصر بلبلُ الروع عتبهُ ألحان
كم بلاد تهزكم ليس فيها لكم جيرة ولا لإخوان

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 147/4.

(2) انظر: مجلة زهرة المدائن (ص20).

خَطْبُنَا لَا يَهْزُ شَوْقِي وَلَكِنْ جَاءَ رُومًا فَهَزَهُ الرُّومَانُ
خَطْبُنَا لَا يَهْزُ حَافِظَ إِبْرَاهِيمَ لَكِنَّ تَهْزُهُ السِّيَابَانُ
مَا لِمَطْرَانِ يَا فَلَاسْطِينِ شَأْنُ بَيْتِكَ لَكِنَّ لَهُ بَنِي رُومَانِ

فالشاعر يعتمد أسلوباً رقيقاً في لفت انتباه كبار العربية من الشعراء كي يولوا عنايتهم لقضيتهم الأساسية؛ لما يستشعره فيهم من مكانة في نفوس أبناء أمتهم... ولما يراه من أثر الأدب في تكوين القيم النضالية والمشاعر الوطنية المتأججة... ولما استصرخهم لذلك لم يسقط في الابتذال والانحراف عن الذوق الرفيع، لا في لفظه ولا معناه...

وقد عني الأدباء العرب بقضية فلسطين أيما عناية سواء في الوطن العربي أم في بلاد المهجر، وتعد قصيدة (نداء الفداء) لعللي محمود طه (1902 - 1949م) من أشهر القصائد في هذا المجال، فهي أنشودة مشهورة غنى بها موسيقار الجيل (محمد عبد الوهاب) ومنها قوله⁽¹⁾:

أخي جاوز الظالمون المدى فحَقَّ الجهاد وحقَّ الفدا
أخي أيها العربي الأبى أرى اليوم موعدا لا الفدا
أخي إن في القدس أختاً لنا أعد لها الذابحون المدى

(1) على محمود طه (شعر ودراسة) - 222 - 223 وانظر فيه 74 - 81 و407 - 411 و429 - 436 و447 - 451.

صبرنا على غدرهم قادرين وكنا لهم قدراً مُرصداً
أخي قم إلى قبلة المشرقين لنحمي الكنيسة والمسجداً
يسوع الشهيد على أرضها يعانق في جيشه أحمداً
وقبل شهيداً على أرضها دعا باسمها الله واستشهدا
فلسطين يفدي حماك الشباب وجلّ الفدائي والمفتداً
فلسطين تحميك منا الصدور فإما الحياة وإما الردى
ومثل ذلك نرى في شعر الجواهري الذي رفض فيه الاحتلال
الصهيوني ودعا إلى تحرير فلسطين، وينبه العرب على الخطر
الصهيوني الماحق، كما قاله في قصيدته بعنوان (فلسطين الدامية)
التي نُشرت عام (1929م)؛ ومنها: ⁽¹⁾
لو استطعت نشرت الحزن والألم على فلسطين مُسوداً لها علماً
رُمْتُ السكوت حداداً يوم مصرعها فلو تُرِكْتُ وشأني ما فتحت فما
ثم قال:
يا أمة لخصوم ضدها احتكمت كيف ارتضيت خصيماً ظالماً حكماً
بالمدفع استشهدي إن كنت ناطقة أوزمت أن تُسمعي من يشتكي الصمماً

(1) انظر: ديوان الجواهري 4 / 157 - 160.

وفي ضوء ذلك كله أخذت المواجهة طريقاً واضحاً وجاداً؛ وإن كان انفعالياً ورومانسياً في داخل الأرض المحتلة... وإذا كانت بقية الأقطار العربية تعاني من الواقع الاستعماري نفسه فإن أغلب أبنائها ظلوا مشدودين إلى قضية فلسطين... وبهذا كله تبين لنا أن أبناء الشعب الفلسطيني على شدة مصائبهم حاولوا التشبث بتاريخهم وهويتهم، والحفاظ على قيمهم الأصيلة بروح تفيض بالحب واليقين، وكانت عيونهم ترنو إلى المستقبل المستتر وراء الأفق... وساندهم في ذلك أكثر أبناء العروبة وهو ما نعثر عليه في المرحلة التي تلت النكبة.

ثالثاً - النكبة والبحث عن الذات (1948 - 1965م):

تعد هذه المرحلة ممثلة لأحداث النكبة بعد قرار تقسيم فلسطين رقم (181) تاريخ (1947/11/29م) الصادر عن مجلس الأمن الدولي؛ إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية. وهو قرار عنصري ظالم وغير مسبوق يدل على بشاعة منظمة الأمم المتحدة على الرغم من التاريخ السيئ لها⁽¹⁾ مع القضية الفلسطينية. وقد استنكره الشعراء، ورأوا أنه سيحدث ثورة عارمة عند الشعب؛ كما نراه في أبيات للشاعر حسن البحيري أنشدها ليلة إعلان القرار⁽²⁾:

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 6/129 - 220.

(2) لفلسطين أغني 62 - الأبيات بعنوان (مولد ثورة) وانظر مختارات من الشعر الفلسطيني 85 - 88.

يا صخرة الأقصى ومعراج الهدى أغرّت بأهلك الخطوب سفيها
قولسي لصهيونية مأفونو سحبت على ذيل التفطرس تيهها
اليوم قد ولدت بأرضي ثورة ما أبصرت عين الزمان شبيهها

فالقرار وهب شذاذ الأفاق من الصهاينة هدية ثمينة من الأرض
تقدر مساحتها بـ (54%) من مساحة فلسطين، ودفعهم إلى القدوم إليها
من دول عدة ولا سيما الغربية وروسيا... وكذلك جعل هذا القرار
مدينة القدس منطقة دولية غير تابعة لأحد وتقدر مساحتها (1%). وقد
حزن الشعراء لما آلت إليه مدينة القدس ومسجدها الأقصى في ظل
الاحتلال؛ وراح حسن البحيري يبكي وهو يطوف به، ومما قاله في
هذا الشأن في قصيدة (المسجد الأقصى)⁽¹⁾:

وقفت في المسجد الأقصى أسائله والنار في جنبات الصدر تستعر
وأدمع القلب تستتلي مصاوبها من مهجتي دم عيني، وهي ينحسر
ما بال محرابك الطهري تغمره ظلال غم دجاها ليس ينحسر

ثم ما إن قررت بريطانيا إنهاء انتدابها لفلسطين في (14/5/1948م)
حتى أعلن المجلس القومي اليهودي الصهيوني إنشاء دولة صهيونية

(1) انظر: لفلسطين أغني 83 - 84 وتبلغ القصيدة (68) بيتاً أنشدها عام 1948م وذكر
فيها حزنه على كنيسة القيامة؛ وما آلت إليه حال العرب؛ وانظر ما قيل في
القدس - مثلاً - (مختارات من الشعر الفلسطيني 85 - 88 و 116).

استيطانية⁽¹⁾ عنصرية برئاسة (ديفيد بن غوريون)⁽²⁾؛ دولة تستند في كينونتها إلى الأكاذيب التوراتية والتلمودية، والخرافات اليهودية المتداولة لتهويد الأرض والتاريخ وتدمير الأقصى، وبناء الهيكل المزعوم، وفق ما ذكره الباحثون على مختلف مشاربهم⁽³⁾؛ وما زال الصهاينة يصرون على أن حربهم في نكبة عام (1948م) وقبله حرب دينية أو ذات طابع دينية ويتهمون العرب بذلك أيضاً كما أثبتته المؤرخ الصهيوني (بيني موريس) في كتاب له عن النكبة ومما جاء فيه: إن حرب عام 1948م "كانت ذات طابع ديني، بالنسبة للعرب على الأقل، وأن العنصر المركزي فيها هو دافع الجهاد، إلى جانب دوافع أخرى سياسية وغيرها"⁽⁴⁾.

وإذا كان بعض الكتّاب قد أشار إلى حالات ابتزاز صهيونية وممارسة ضغوط شتى لإصدار قرار التقسيم... فإن هذه الدولة اللقيط قد قبلت عضواً في الأمم المتحدة بالقرار رقم (273) تاريخ (11/5/1949م)... ثم إن ولادة دولة الكيان كانت ولادة ناتجة عن زواج فكر الحركة الصهيونية بالمصالح الغربية في المنطقة⁽⁵⁾؛ بوصفها تجسد رغبة جامعة للغرب بالهيمنة عليها، والاستمرار في استنزاف طاقاتها

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 23/6.

(2) انظر: صحيفة البعث (نكبة فلسطين.. أربعة وستون عاماً) ص 15 - العدد 14528 تاريخ 2012/5/15م.

(3) انظر: - مثلاً - كتاب - المنظمات الصهيونية - الصادر عن هيئة الأبحاث القومية، وبحثنا (مصير القدس في ظل مشروع التهويد) 11 - 41.

(4) انظر: جريدة البعث - ص 15 - العدد 13998.

(5) انظر: الموسوعة الفلسطينية 16/6 - 20.

ومواردها، والتدخل في شؤونها... وكانت حكومة الانتداب البريطاني تعلم علم اليقين بتشكيل العصابات الصهيونية المجرمة من اليهود الصهاينة مثل عصابة (الهاغانا) و (الأرغون) و(شتيرن)، فضلاً عن أنها أمدتها بالأسلحة وأسباب التفوق؛ على حين لم تسمح للشعب الفلسطيني ببناء أي قدرة عسكرية. ثم برز عدد غير قليل من السفاحين الصهاينة أمثال (حاييم وايزمن وديفيد بن غوريون واسحق شامير ومناحيم بيغن، وشمعون بيريز وموشي دايان، وإيغال آلون وأرائيل شارون واسحق رابين...) ولا سيما حين مارست تلك العصابات سياسة استيطان بشع للأرض، وضربت عرض الحائط بقرار حق العودة رقم (194) تاريخ (1948/12/11م) الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة. ولعل هذا لا ينسينا المكر الصهيوني والتضليل الغربي ولا سيما بعد أن أصبحت الولايات المتحدة دولة عظمى؛ ودخلت بقوة في رسم سياسة المنطقة وحماية الكيان الصهيوني الوليد اللقيط، منذ أعلن ترومان الاعتراف به يوم نشوئه⁽¹⁾. وكل منهما حمل الزعماء العرب مسؤولية النكبة التي حصلت للشعب الفلسطيني، وما تبعها من تهجير وحشي، ومذابح ارتكبت بحق أبنائه؛ لأن هؤلاء الزعماء رفضوا قرار التقسيم... وهذا وغيره ما تناوله الكاتب الصهيوني (تسفاي غباوي) في صحيفة (معاريف) الصهيونية يوم (30 / 4 / 2012م). فقد مارس عملية تزوير علنية على الرغم من أن شهوداً أحياء ما زالوا يتحدثون عن نكبتهم؛ وكذلك هم من عاصروها...

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 20/6 - 36 ومشروع القومية العربية إلى أين 162 - 164

فالنكبة التي أحدثها قطاع الطرق وشذاذ الآفاق أوجدت كياناً إجرامياً لا يرتوي إلا من سفك دماء الأبرياء والمسلمين من النساء والشيوخ والأطفال وكل من لم يتحفظ للقتال... ومضى الكيان وأربابه في الغرب يمارسون كل أساليب النفاق والخداع والمكر لإقامة وضع جديد يرسخ الاستيطان الصهيوني في فلسطين وابتلاع مدنها وقراها ومزارعها قطعة قطعة، ثم تهويدها، ما يعني ضياع فلسطين شيئاً فشيئاً. لهذا اعتُمدت سياسة الترغيب والترهيب... وارتكبت أفظع المجازر الجماعية بحق السكان، وقد زاد عددها على (540) مجزرة قبيل النكبة وبعدها⁽¹⁾، ودمرت الممتلكات والأراضي في صميم سياسة الأرض المحروقة كما حدث في مجزرة دير ياسين في (9/4/1948م) وقضى فيها (245) شهيداً، ومجزرة (الطنطورة) - الواقعة على الساحل جنوب مدينة (حيفا) بنحو (23) كم - في (22/23/5/1948م) التي ارتكبتها الكتيبة الثالثة والثلاثون من عصابة (الهاغانا) بحق القرية... فالمذبحة الجماعية فيها ليست بأقل من سابقتها في (دير ياسين) و(كفر قاسم) بل ربما فاقتهما في الفظاعة، إذ دمّرت بالكامل، وجرفت مزرعاتها، وقتل فيها (230) شخصاً من الأبرياء شبيهاً وشباباً؛ أطفالاً ونساء. ثم إن مجزرة (دير ياسين) غدت رمزاً لكل

(1) انظر: جريدة البعث - ص 15 - العدد 14528 - دمشق - الثلاثاء 2012/5/15م - مقال (نكبة فلسطين، أربعة وستون عاماً) - فقد ذكر فيه الدكتور معن منيف سليمان عدداً من المجازر وغير ذلك مما يدل على سياسة التهويد. وقد ألف الدكتور إبراهيم جابر كتاباً بثلاثة أجزاء ضمت رواية الأجداد للأحفاد عن جرائم الصهاينة قبل النكبة وبعدها وعنوانه (جرح النكبة)؛ وانظر كفتاح عرب فلسطين 85 - 103.

المجازر عند الشعراء الفلسطينيين مثل يحيى برزق الذي أرخ لها بعدد من أشعاره⁽¹⁾ ومنها قصيدته بعنوان (يا دير ياسين)، وقال فيها⁽²⁾:

يا دير ياسين الحبيبة يا منى عيني وقبلة قلبي الخفاق
ما زلت تثاراً للعروبة كلها فأكرك خضب بالدم المهرق
وعرائس الزيتون تندب أهلها الأحرار وهي ذليلة الأعناق

وقد اعترف عدد من الباحثين والمؤرخين الصهاينة بهذه المجازر وغيرها وبينوا أنها تفوق في وحشيتها أي جرائم أخرى لهم. ومما أورده المؤرخ الصهيوني (بيني موريس) عن مجزرة دير ياسين قوله: "إنه بالنسبة لليهود فإن أهم ما حصل في دير ياسين هو أنها كانت المسرع لهروب العرب من البلاد... إن دير ياسين لم تكن المجزرة الوحيدة، حيث وقعت أعمال قتل كثيرة، مثل اللد حيث قتل (250) شخصاً غالبيتهم لم يكونوا مقاتلين، وقتلوا أسرى في داخل المسجد كما وقعت مجزرة أخرى في يافا"⁽³⁾.

هكذا يعترف بعض الصهاينة بما فعله آباؤهم الذين أثاروا الرعب في قلوب السكان لتهجيرهم من بيوتهم فكانت مكبرات الصوت ترتفع بالنداء الآتي: "ما لم تغادروا دياركم فإن مصير دير

(1) انظر: الأعمال الشعرية الكاملة (يحيى برزق) 225/1 - 240.

(2) المرجع السابق 227/1.

(3) انظر: جريدة البعث - ص15 - العدد 13998 وانظر (من القدس إلى غزة 26 - 39)

و (69 - 70).

ياسين سوف يكون مصيركم". وبمعنى آخر جرت عملية تهجير (ترانسفير) منهجية وقسرية، إذ كانت نسبة المهجرين من الفلسطينيين (73٪) بسبب الأفعال الإجرامية لعصابات الصهاينة؛ وهي أفعال أثارت الرعب والفرع في قلوب أولئك الأمنيين كما أكدته الوثائق الصهيونية لنكبة (1948م) قبل غيرها... ولا شيء أدل عليه مما قاله مدير دائرة الاستيطان في الوكالة اليهودية في عام النكبة (رعنان ويتز)، ومنه: (إنني حرثت فلسطين وحولتها إلى أرض مستوية بأمر هدم وإزالة أكثر من (300) قرية فلسطينية من النقب حتى الجليل" كما ذكرته صحيفة (جيروزاليم بوست) الصهيونية في (3/7/1997م)⁽¹⁾. وكان الأدب يواكب ذلك كله ويتحدث عن الجرائم الصهيونية كما نجده في قول الشاعر توفيق زياد (1929 - 1994م)، ومنه:⁽²⁾

سأحضر وصيَّتي وفصول مأساتي

وأهاتي

على بيارتي وقبور أمواتي

* *

(1) انظر: صحيفة البعث - ص10 - مقال مترجم (النكبة التي لا تنتهي أبداً) - العدد 14541 - دمشق - الأربعاء (30/5/2012م).

(2) انظر: مختارات من الشعر الفلسطيني 91 - 93 وأدب المقاومة في فلسطين المحتلة 93 - 94.

سأحضر رقم كل قسيمة
من أرضنا سلبت
وموقع قريتي وحدودها
وبيوت أهلها التي نُسفتُ
وأشجاري التي اقتلعتُ
وكل زُهيرية بريّة سُحقت
وأسماء الذين تفتنوا
في لوك أعصابي وإعاسي
وأسماء السجون
ونوع كل كلبشة
شُدت على كفي
ودوسيهات حُرّاسي
وكل شتيمة صبّت على راسي
وأحضر (كفر قاسم لست أنساها)
وأحضر (دير ياسين تُشرّشُ في ذكرها
وأحضر (قد وصلنا قمة المساة
لاكتنا ولكنها
ولكنًا
وصلناها).

ولعل هذا يدفعنا إلى التساؤل: إذا كان الظلم قد وقع على اليهود الأوربيين من قبل أبناء جلدتهم الذين أبادوا كثيراً منهم بما سموه (المحرقة) التي يتباكون دائماً لها⁽¹⁾ فهل أرادوا الانتقام منهم بارتكاب هذه المذابح البشعة بحق شعبنا البريء في فلسطين التي أشار إلى مثال لها توفيق زياد!! إنه سؤال يبقى في ضمير البشرية وضمير الجمعية العامة للأمم المتحدة التي أنشأت بقرارها رقم (302) تاريخ (2949/12/8م) هيئة للإغاثة أسمتها (وكالة غوث اللاجئين - الأونروا) كواحدة من مسوغات القرار (194) وتعويضاً لهم عن مأساتهم، اللهم إن لم يكن هذا التعويض بديلاً من حق العودة. ولا مرء في أن الفساد المالي والإداري قد نخر عظامها، وسيطر على برامجها⁽²⁾، وربما أسهمت الصهيونية العالمية في إفسادها للتخلص منها، وهي التي بذلت جهوداً مضنية لإلغائها إمعاناً منها في القضاء على كل شيء يدل على وجود لاجئين فلسطينيين.

وهذا الفعل المبرمج ينسجم مع محاولة الحكومة الصهيونية التخلص من مصطلح النكبة، ومحو كل آثاره في المناهج المدرسية. فالحكومة الصهيونية أخذت تنفذ برامج سياسية وثقافية وفنية وأدبية في (5/15) من كل عام إمعاناً منها بإزالة كل ما يتعلق بمصطلح النكبة أو أي شيء يذكر به، وتدعو إليها بعض العرب الذين باعوا أنفسهم للشيطان، فضلاً عن استقدام عدد كبير من الشخصيات

(1) انظر: البولوكوست (حقيقتها والاستغلال الصهيوني لها) - 49 - 60 ومشروع

القومية العربية إلى أين 204 - 206.

(2) انظر: مجلة فلسطين المسلمة 48 - 51 - العدد السادس.

العالمية المعروفة. وهي تنطلق من أن أي ذكرى للنكبة أصبحت تشكل حالة وعي جديدة بالجرائم التي ارتكبتها الصهاينة في فلسطين، وتعيد إلى الذاكرة جريمة حماية الغرب لدولة عنصرية استيطانية عدوانية على حساب شعب مظلوم مقهور سُرقت أرضه التي ورثها منذ آلاف السنين. وقد استمدت هذه الدولة من الغرب قوتها حين راح يرسم لها البقاء والديمومة ويقدم لها كل عون ودعم اقتصادياً ومالياً وتقنياً وبالسلح، ويوفر لها الغطاء الدبلوماسي والسياسي من دون أن ننسى لحظة واحدة بأن دولة الكيان ما قامت إلا بضعف العرب. وهذا كله يعد خطراً على وجود الكيان الصهيوني، ما استوجب على تلك الحكومة إنفاذ برامج شتى في ذلك المقام ويؤيد هذا الرأي ما قاله (ديفيد بن غوريون) مخاطباً عصابات الصهاينة المذكورة سابقاً والتي صارت أساس الجيش الصهيوني من بعد: "أهنئكم على قيام (إسرائيل)... لكن أحب أن أقول لكم... إن انتصاركم هذا لم يأت من قوتكم... إنما جاء من ضعف عدوكم". وكانت القوة العربية التي دخلت حرب عام (1948م) مؤلفة من مجموعات تنتمي إلى سبعة جيوش مفككة لا تملك قيادة عسكرية مشتركة فضلاً عن أن معظم ضباطها من البريطانيين؛ وأسلحتها متخلفة أو فاسدة. ولعل المعركة غير المتكافئة بين جيش صهيوني مُدربٌ تعداده 70 ألفاً وجيد التسليح وله قيادة واحدة، ومدعوم بتأييد دولي وبين جيش عربي لا يزيد على عشرة آلاف، وضعيف غير متماسك... نقول: لعل هذه المعركة جعلت 77٪ من أرض فلسطين تصبح بيد الصهاينة.... ثم إن دولة الكيان تمكنت من إثبات وجودها أمنياً وعسكرياً وسياسياً، واقتصادياً... وأخذت تحقق رغبة الدوائر

الغربية والصهيونية - وما زالت - في إعاقة تحقيق وحدة الأمة العربية؛ ومنع تميّتها السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية... أي إن الدولة الصهيونية أضحت رأس حربة لإحداث الهزات والنكبات والنكسات في المنطقة واستهداف القوى التحريرية والوطنية والقومية، ولا سيما حين أنتجت نكبات متعددة الأشكال كنكسة (5/6 /1967م).

ثم تناسل الوهم العربي في استيلاء الرعب خوفاً من حدوث هزائم أخرى؛ إذ كانت الهزيمة النفسية أعظم خطراً من آثار النكبة في داخل الأرض المحتلة وخارجها؛ لاسيما أن الدوائر الغربية والصهيونية شرعت تخطط لإعدام أحلام اللاجئين بالعودة وتوطينهم حيث رحلوا، وإغرائهم بالمال والأعمال... وقد تبنت أمريكا منذ عام (1954م) على لسان وزير خارجيتها آنذاك (جون فوستر دالاس) سياسة الاندماج في المجتمعات الجديدة للفلسطينيين، إذ قال: "إن المشكلة الفلسطينية سوف تحلّ عندما يحل محل المنفيين أبناءهم، لأنهم سوف يشعرون بارتباط بوطنهم"، علماً أن رئيسة وزراء الكيان الصهيوني السابقة (غولدا مائير) قد قالت في شأن الفلسطينيين ونكبتهم: "الكبار يموتون... والصغار ينسون؛ وتنتهي قضية فلسطين".

ثم إن الحكومات الصهيونية المتتابعة حاولت جاهدة استكمال محو الهوية الفلسطينية، وتخريب كل أثر تاريخي حضاري وعمراني يدل على الشعب الفلسطيني، أو تشويه ملامحه وتزويره إمعاناً في التضليل والتزييف ليظهر أثراً صهيونياً... وكذلك فعلت في عدد من أشكال التراث الفلسطيني في اللباس والطعام وغيرهما لقطع كل

صلة للفلسطينيين بوطنهم، علماً أن كل الآثار وأشكال التراث أثبتت عدم وجود شيء منها يدل على الصهاينة اليهود⁽¹⁾...

إذا نتج عن نكبة (1948م) مأساة إنسانية مورس فيها التطهير العرقي بحق العرب الفلسطينيين، مأساة دفعت قسماً من السكان إلى الفرار بحياتهم لا يحملون من أمتعة إلا الحزن والدموع والتعاسة والمرارة وهم يزدادون بعداً عن بيوتهم وأراضيهم ويجتازون الدروب إلى غزة ومصر، والضفة الغربية والأردن؛ وسورية ولبنان وغيرها من البلدان. وسواء حلوا في الضفة الغربية وغزة من أرض فلسطين لعام (1948م) أم ابتعدوا عنها إلى ديار المنايا في الأردن وسورية ومصر ولبنان شعروا بأن الاغتراب يقتلهم كما يعبر عنه سالم جبران:⁽²⁾

تُعبّر الشمسُ الحدود

دون أن يطلق في جبهتها النارَ الجنود

ويغني بلبل الدوح ضحىً في طولكرم

ومساءً يتعشىً وينامُ

بسلامٍ

مع أطيّار كبوتسات اليهود

ويقول في قطعة أخرى له يخاطب صفاً:⁽³⁾

(1) راجع ما تقدم - ص 17.

(2) انظر: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 132 والبحيري 80 - 81.

(3) انظر: المرجع السابق 133.

غريب أنا يا صفد!!
وأنت غريبة!!
تقول البيوت: هلاً!!
ويأمرني ساكنوها: ابتعد!!

فالألم يكوي صدره لأن سكان داره صاروا من اليهود، بينما
أهلها تشرّدوا في كل اتجاه...

ومن ثم حاولت دولة الكيان غسل أدمغة المهجرين في الشتات من
حق العودة، وتشجيعهم على الاندماج في مجتمعات بلدان اللجوء
والشتات، والتوطين حيث هم؛ فما كان لهم صار للمستوطنين
الصهاينة الغرباء. ولكن اللاجئين ردّوا على ذلك كله بالندم على
الخروج من أرضهم، ويمزج من البحث عن الذات الوطنية، فوجدوا
أنفسهم يزدادون حنيناً إلى وطنهم ويتعلقون به، وغدت مفاتيح بيوتهم،
وصكوك التملك وخيمة التشرّد والبؤس تدفعهم إلى التشبث بالوجود
من أجل أن تتكحل عيونهم بمشاهدة أرضهم. وجهدوا في إسقاط كل
تفاعلات النكبة بما فيه المصطلح الذي لا يذكرهم إلا بطردهم من
أرضهم.

ولهذا نقول: لما كان أدب المقاومة مقتصرًا على بيان وجوه
المواجهة إبان الانتداب البريطاني، ووصف بطولة المناضلين والشهداء؛
ورسم صورة للآلام والمصائب التي أحدثتها في النفوس؛ فقد بات أدب ما
بعد النكبة أشد تركيزاً في وصف المصائب والآلام الناتجة عن
اغتصاب الصهاينة لفلسطين، وتأريخ ارتكابهم للمجازر الهمجية بحق

الشعب الفلسطيني؛ ثم الحديث عن التهجير والخيام والمنفى وما يرتبط بها من مآسي الغربة والاغتراب في الشتات... أي إن أدب النكبة كان يتحول شيئاً فشيئاً في ملامحه ليقترّب من شكل الأدب المقاوم؛ ما يعني أن خيمة اللجوء والحزن والشقاء والمرارة ستصبح خيمة للتوق الوطني وللصبر والتحدي والصمود والمقاومة... وقد برز دور الطلائع المثقفة في المنايا حين استطاعوا "وضع أسس عريضة - وفي وقت قصير نسبياً - لأدب عربي يمكن وصفه بأدب المنفى أكثر مما ينطبق عليه وصف الأدب الفلسطيني أو أدب اللجوء؛ وكان الشعور بالذات هو الرائد في هذا المجال"⁽¹⁾.

ومن ثم بدأت تتعزز في نفوس اللاجئين شيئاً فشيئاً روح الثورة على الواقع المزري الذي فرض عليهم، ولم يلبثوا أن أخذوا يسقطون كل دعوة أو فكرة تتحدث عن (الوطن المنفى) ويتحولون في أدبهم من أدب النكبة القائم على تصوير المعاناة، والمأساة الفلسطينية إلى أدب المقاومة بوصفه منظومة متكاملة⁽²⁾ للدفاع عن النفس والتصميم على العودة؛ وبوصفه مواجهة حقيقية لأدب الآخر الصهيوني الذي راح يشوه الحقائق كما انتهى إليه من - من قبل - غسان كنفاني⁽³⁾. ويعد الشاعر عبد الكريم الكرمي من أبرز الشعراء الذين ألحوا على

(1) أدب المقاومة في فلسطين المحتلة (18) وانظر فيه 17 - 58.

(2) انظر: ملامح في الأدب المقاوم 34، والموسوعة الفلسطينية 25/4 - 26 و 31 - 33.

(3) انظر: تفصيل ذلك في (أدب المقاومة في فلسطين المحتلة) 61 - 90 ففيه ما يغني ويفيد.

التبشير بالعودة، والحنين إلى فلسطين، والتعبير عن آلام الغربة
كقوله⁽¹⁾:

شعريّ جسر يلتقي فوقه أهلي بما يحلو وما يشجن
يعبّق شعري بشذا موطني لولاه لا يزكو ولا يحسُن
يا وطني لا تأسِ إنا على عهدك مهما طالّت الأزمن
تقنى الزعامات وأشباهاها والخالدات الشعبُ والموطن

ثم إن قوة القصيدة برمتها آتية من هذه اللغة المتعلقة بالوطن وهي
تموج بالأمل القادم من وراء الأفق؛ أمل بالنصر والعودة إلى فلسطين وإن
تعرضت لنكبة لم تكن نتيجة للإرادة الشعبية، وقيم المجتمع العربي.
فالشاعر يعزي نفسه من ضياع وطنه وابتعاده عنه بتلك السياسة
العاجزة التي تبنتها الزعامات العربية، ومن ثم يلقي باللائمة عليها،
لأنها لم تحسن عقْد حبل الدفاع عنها... لهذا كانت أبياته مملوءة
بشجن رومانسي عالٍ؛ يفيض بمفارقات شتى...

وهذا ما نجده عند الشاعر حسن البحيري الذي غنى لحيفا
خاصة ولوطنه فلسطين عامة وحنً إليها حنين الولهى إلى أولادها فقال
من قصيدته (حيفا في سواد العيون)⁽²⁾:

(1) مجلة العودة - ص40.

(2) البحيري 49 و84 و88 و234 - 242، مجلة العودة - ص40.

ما أشرقت عيناك إلا خانني بصبايتي صبري وحسن تجملي
وتحسست كفاي من ألم الجوى سهماً مفارسُ نصله في مقلتي
فلقد رأيت بلحظ عينك إذ رنت والتيه يكحلها بميل تدلل

فحسن البحيري يعني لفلسطين ولقدس الأقداس أجمل القصائد؛
فترايبها تير، وحصاها در، وصخرها ياقوت، وشجرها فضة، وثمرها
ذهب... يعاهدها على الجهاد؛ ولا ييالي بالنكبات والخطوب
والأعاصير وصروف الدهر إذ يقول⁽¹⁾:

فغداً تكشف الليالي دُجَاهَا وتُجَلِّي صباحاً وضيء المسافر
وغداً تُرقص الزمان انتصاراً ونزف المنى بعرس البشائر

وكذلك فاحت رائحة التشاؤم خوفاً من المجهول ولاسيما حين
ازدادت حالة اليأس والشقاء في خيام اللجوء والمناجاة؛ فما كان يملك
الشعراء إلا الحنين إلى الفردوس المفقود تعويضاً عن حالتهم الراهنة
كما نراه عند عبد الكريم الكرمي وسليم الحوت وهارون هاشم
رشيد وتوفيق صايغ وآخرين غيرهم.. ولا شيء أدل عليه من قول يوسف
الخطيب في خمسينيات القرن العشرين يخاطب فيه عندليباً مهاجراً
من فلسطين، ومنه⁽²⁾:

(1) انظر: لفلسطين أغني 12 - 15 وانظر فيه 28 و33.

(2) انظر: الموسوعة الفلسطينية 31/4 وانظر لفلسطين أغني 67 و77.

أترك مثلي يا رفيق تمر بالزمن
عبر الليالي السود والمحن
لا صاحب يرخي عليك غلالة الكفن
لو قشّة مما يرفُ بييدر البلد
خبأتها بين الجناح وخفقة الكبد
أم جئت مثلي بالحنين وسورة الكمد

وراح الشعراء ينشدون أهازيج العودة ويرددون البشري بالنصر
كما فعل هارون هاشم رشيد في قصيدته المشهورة التي غنتها الفنانة
اللبنانية السيدة (فيروز) (سرجع يوماً إلى حيناً)⁽¹⁾ ، وحسن البحيري في
قطعته (رايات الفداء)⁽²⁾ :

وطني... وأمجادي على نغر الزمان تبسّم
ولعودتي يومٌ به عرس العلا يترنّم
والنّار في صدري براكين اللهب تُزْمِمْ
قسماً برايات الفداء هفت إليك الأنجم
بترابك الطهريّ وهو على اليهود محرّم
لن يستقروا فوق أرضك والعروق بها دمّ

(1) انظر: عائد إلى حيفا وأعمال أخرى 30 والبحيري 277.

(2) لفلسطين أغني 110 وانظر فيه 115 - 128 والبحيري 37 و48 والوطنية في شعر
حسن البحيري 215 - 223.

ولعل معين بسيسو (1930 - 1984م) من أشهر الشعراء الثائرين
المتمردين على العجز، وإن كان اقتلعه من أرضه نتيجة من نتائج
النكبة وهو القائل:

"من غزة، أحمل ذكرى فجرية، أرضعت طفولتي ترياق
الرحيل، ومن يومها وأنا ابن النار"⁽¹⁾.

ولما باغتته النكبة لم تكن لوعاتها لتكسره أو تثني عزيمته
عن التضحية والفداء؛ فصرخ بأعلى صوته سنة (1952م) بنشيد سمي
(المعركة) ومنه قوله:⁽²⁾

أنا إن سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح
واحمل سلاحي لا يُخفك دمي يسيل من السلاح
وانظر إلى شفتي أطبقها على هوج الرياح
وانظر إلى عيني أغمضتها على نور الصباح
أنا لم أمت... أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح

فالشاعر تشبث بالدعوة إلى المقاومة؛ وثبت على موقفه ولو أدى
به الأمر إلى النفي من مكان إلى آخر أو إلى السجن وظل هذا دأبه

(1) وانظر: جريدة الثورة - دمشق - ص 19 - العدد 14566 (شاعر صرخة الحق...
سأقوم).

(2) انظر: الموسوعة العربية 35/4 وجريدة الثورة - دمشق - ص 19 - العدد 14566
(شاعر صرخة الحق... سأقوم) وانظر مختارات من الشعر الفلسطيني 71 - 83.

إلى أن توفي في غرفة مغلقة بلندن عام (1984م) نقل بعدها إلى القاهرة ودفن فيها؛ ولم تتكحل عيناه برؤية وطنه.

وفي هذا المقام لا يمكننا نسيان الشهيد الأديب غسان كنفاني (1936 - 1972م) وما تركه وراءه من إبداعات تتناول مآسي الشتات وعمق تجذر النكبة في النفس الفلسطينية كما يتضح لكل من قرأ روايته (رجال في الشمس - 1963م) أو روايته (عائد إلى حيفا) على سبيل المثال؛ فقد أصبح المكان فيها مكاناً مقاوماً لكل إفرزات النكبة، وهو مكان يستثير في القارئ أسراراً كثيرة، ما فرض علينا أن نجعله مثلاً مطولاً للقراءة والتحليل في ختام القول⁽¹⁾... ففاجعة الغربة التي استفاق عليها الشعب الفلسطيني بعد النكبة في الشتات لم تجعله يفرق في الأحزان، أو تكبله اللوعة؛ وتحرق جسده الآهات - وإن أصبح تراب الوطن حزيناً كما قال بديع حقي ذات يوم حين عنون مجموعة قصصية له بالتراب الحزين تحدث فيها عن أحداث النكبة وصدرت عام (1960م) بدمشق⁽²⁾ - وإنما انتفض عليها شيئاً فشيئاً حين استفاق على زبانية الشيطان من الصهاينة وعملائهم....

وأما القسم الآخر فقد تشبث بالأرض لم يفادها، مواجهاً
الاعتقال الفردي والجماعي، والابتزاز والضغط والمساومة، والأذى الجسدي والنفسي؛ تمسك بأرضه لا يرضى عنها بديلاً، أيّاً كان ظلم

(1) انظر: ما يأتي (قراءة فكرية تحليلية ص 63)، وعائد إلى حيفا وأعمال أخرى -

22 وما بعدها، وأدب المقاومة في فلسطين المحتلة 7 - 8.

(2) انظر التراب الحزين - 5 و 14 - 17 و 25 و 35.

الصهاينة كما قال ذات يوم توفيق زياد في قصيدته (المستحيل)
ومنها: ⁽¹⁾

هنا على صدوركم باقون كالجدار

وفي حلوقكم

كقطعة الزجاج... كالصبار

وفي عيونكم

زوبعة من نار

... فالحكومة الصهيونية اعتمدت منهجاً استعمارياً استيطانياً متوحشاً لابتلاع الأرض، وتعذيب أهلها الذين بقوا في أجزاء منها... وقد أنشأت تلك الحكومة إثر ذلك السجون والمعتقلات ومراكز التوقيف، وقامت بما يزيد على (800) ألف حالة اعتقال بين نكبة (1948م) ونكسة (1967)، ومارست على عدد منها كل صنوف القهر، والتعذيب مثل العزل الانفرادي ومنع العناية الطبية والزيارات الخاصة مخالفة بذلك المادة الثالثة من اتفاقية جنيف الرابعة؛ والمادة الخامسة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والمادة الثالثة من الميثاق الأوروبي لحماية حقوق الإنسان الأساسية لعام (1950م). ولعل هذا ما عبّر عنه الشاعر الفلسطيني (حنا أبو حنا - 1927م) حين أرسل بطاقة تائرة من سجنه في (الرملة - عام 1958م) قال فيها: ⁽²⁾

(1) انظر: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 98.

(2) انظر: شعر المقاومة في النقد الأدبي في العالم العربي - (عادل الأسطة)/ الشابكة.

خسئوا فما حبسوا نشيدي بل ألهبوا نار القصيد
ناراً تاجج لا تكبلُ بالسلاسل والقيد
نار جحيم للطفأة وزمرة العسف المريد

فهذا الجزء من القصيدة يثبت مدى الحزن الذي ألمه خلف
القضبان من دون أن يقدر على مشاركة الأبطال معارك الشرف...
ولكنه أبى إلا أن يكون شعره في تلك الساحة النضالية؛ جاعلاً من
كل كلمة ناراً تحرق الأعداء الصهاينة الطغاة، ولن يستطيعوا حبسها
لأنها ستنتقل في الآفاق ثائرة متمردة على الاحتلال الأسود...

وهذا شاهد يدل على أن المرحلة التي أعقبت النكبة كانت
الأفظع في تاريخ الشعب الفلسطيني... إذ أضحت جرحاً دامياً في
النفس يجتاح نفس كل حر شريف وعقله؛ ويدعوه إلى التصدي لمآسي
الاقتلاع/ والتهويد، والتعذيب، والاعتقال، والقتل... ولا نستغرب بعد
الذي قلناه أن يقف محمود درويش في عام (1964) مدافعاً عن انتمائه
في مواجهة الكيان الذي صمم على محو الهوية العربية الفلسطينية
فنظم قصيدته (بطاقة هوية) مخاطباً بها موظف وزارة الداخلية
الصهيونية؛ ومنها: (1)

سجّل أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألف

(1) ديوان محمود درويش 35 وانظر فيه 20 و 23 و 25 و 28 و 32 و 41.

وأولادي ثمانية، وتاسعهم سيأتي بعد صيف
فهل تفضب؟!

ويرد الصهاينة عليه بالاعتقال، ثم الإقامة الجبرية في منزله
بوادي (النسناس)، ولم يلبث أن كتب قصيدة عنوانها (جندي يحلم
بالزنايق البيضاء) وفيها يخاطب جندياً صهيونياً: منها: ⁽¹⁾

لم أفهم الأشياء

إلا كما يحسها... يشمها

يفهم - قال لي - إن الوطن

أن أحسني قهوة أُمي

أن أعود في المساء، سألته:

والأرض؛

قال: لا أعرفها

ولا أحس أنها جلدي ونبضي

وبهذا ينقض الشاعر محمود درويش (1941 - 2009م) مفهوم
الصهاينة حول ما أطلقوا عليه (الأرض الموعودة) فالجندي الصهيوني
لم يعرف في يوم من الأيام أن الوطن يعادل الأرض التي غزاها وقاتل
فيها لأنه يدرك في قرارة نفسه أنها ليست أرضه وعلى الرغم من ذلك

⁽¹⁾ انظر: ديوان محمود درويش 90 وانظر فيه 47 - 48 و 49.

فالشاعر محمود درويش يعيش اغتراباً داخلياً وهو في قلب وطنه كما نراه في قصيدته المعروفة (إلى أمي) وغيرها⁽¹⁾. وأياً ما يكن الأمر عنده فالأم والأرض والحبوبة، والأرض وجوه لماهية واحدة تتردد في أشعاره كما تردت في أشعار غيره سواء في الداخل أم الخارج، وكذا حديثه عن شجرة الزيتون⁽²⁾. وإن كنا نأخذ عليه حديثه الذي أخذ مسارب أخرى تدعو إلى الشك في قصيدة (ريتا والبنديقية)⁽³⁾. وفي هذا المقام لا يمكننا أن نتجاهل الشاعر الكبير سميح القاسم؛ ولكننا سنشير إليه هذه المرة في روايته المثيرة (الصورة الأخيرة في الألبوم) وهي رواية توثيقية من طراز رفيع تتقصى حياة الشعب الفلسطيني في ظل الاحتلال الصهيوني وتقف عند مفاصل كثيرة من معاناته⁽⁴⁾...

وقد استشعر عدد من الشعراء العرب منذ وقت مبكر نكبة الشعب الفلسطيني، ومعاناته داخل الأرض المحتلة وخارجها وإن تنكب عن جادتها عدد آخر. ولا شيء أدل عليه من شعر أحمد محرم الذي استطاع أن يرتفع فيه عن روح المباشرة والتقدير؛ إلى روح التمرد والثورة التي تتلفح بنار الوجد والحب، وقد دهم فلسطين خطب مدلهم لا ينقشع إلا بالكفاح والجهاد؛ ومنه⁽⁵⁾:

لبيك يا وطن الجهاد ومرحبا لبك من داع أهاب وثوياً

(1) انظر: ديوان محمود درويش 49 وانظر فيه 47 - 48.

(2) انظر: ديوان محمود درويش 88 و 89

(3) انظر: المرجع السابق 92 و 99 - 105.

(4) انظر الرواية كاملة - إصدار اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2009م.

(5) انظر: مجلة زهرة المدائن 21.

من ذا يرى دمه أعزُّ مكانةً من أن يُخَضَّب من فلسطين الرُّيا
وطن يعدُّب في الجحيم وأمة أعزز علينا أن تصاب وتكبا

ومن ثم صار الأدب الفلسطيني المقاوم شعراً ونثراً⁽¹⁾ بمضموناته
المتنوعة يستدعي الرد على الأدب الصهيوني المعاكس، في الوقت الذي
يفند المزاعم الصهيونية⁽²⁾، ... وهذا يعني أن الأدب المقاوم بوصفه أدباً
ملتزماً يحمل بجدارة كل ماهية الدفاع عن ثقافة الوطن وهويته،
ويحرص على الدفاع عنها، ويغني ذاكرة الأجيال بروح الثورة
والمقاومة.

فالشعب الفلسطيني بشيبه وشبابه؛ وأطفاله ونسائه خيَّب ظن
المستوطنين الصهاينة، فأكد تمسكه بتاريخه وهويته وصمَّم على
حق العودة مقابل النسيان والتفريط والتواطؤ والاستسلام؛ ورفض
الوطن البديل وصارت مفاتيح البيوت التي حملوها معهم وكذلك
صكوك الملكية رمزاً لحق العودة إلى الوطن فلسطين كل فلسطين.
ولعل ما قاله يوسف الخطيب في هذا المجال من أعظم الشواهد على
ذلك، علماً أنه دعا إلى المواجهة المسلحة لاستعادة حرية وطنه، ومما
قاله:⁽³⁾

(1) انظر: - مثلاً - دراسات في أدب النكبة (الرواية) - 13 - 55.
(2) توقف غسان كنفاني عند ذلك مبكراً في كتابه (أدب المقاومة)، انظر فيه 61 -
90 ثم تابعه الدارسون؛ كما أشرنا في المدخل.
(3) ديوان يوسف الخطيب 27 وانظر خلف أسوار الهوى 64 - 68.

لم نزل نرقب الخلاص ولا بد سيأتي بعث لنا ونشور
يوم نمضي إليك أيها العاتي ويوم الحساب يوم عسير
والعيون الظماء للنور في الكهف أفاقست وقد جلاهما النور

وهذا كله يشي بتشكّل وعي نضالي كبير لدى الفلسطينيين
كافة ومنهم المبدعون؛ وبخاصة حين جعلوا حق العودة والتحرير حقاً
تتوارثه الأجيال؛ حتى كبر الوطن الفلسطيني في نفوس اللاجئين الذين
راحوا يسمون أبناءهم بأجزاء من أرضهم مثل (بيسان)⁽¹⁾ ... أي إن
الوعي بالذات كبر في النفوس رداً على مخططات اغتصاب فلسطين
وتضييعها ولم يعد بحثاً عن الذات المشردة والمبعثرة...

رابعاً - مرحلة النهوض ووعي الذات (1965 - 2000م):

تعد هذه المرحلة ذات أهمية ملموسة على الصعيدين الداخلي
والخارجي كونها مرحلة التحولات الكبرى في الرؤية والموقف
والمشاعر فقد انقلب البحث عن الذات وعياً بها وبمصير الوطن الذي
ينتمي الشعب الفلسطيني إليه سواء كانوا في الداخل أم الخارج...
واستطاع الأدب المقاوم أن يعبر عن ذلك كله... فمخيمات الشتات لم
تعد مكاناً للحزن والبؤس، وإنما غدت مكاناً لولادة الوعي بالذات

(1) انظر: مجلة العودة - ص 24 - مقال (كبار يموتون وصغار لا ينسون) و ص 26 -
مقال (أم صالح... عندما يروي الأجداد قصة النكبة للأحفاد).

الوطنية؛ وجوداً وهوية وتاريخاً واستتباتاً للتحدي والصمود، والبطولة والفضاء من قلب اليأس والبؤس، والتمسك الصارم بحق العودة والتعويض، الذي كفله قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (194) تاريخ (11/12/1948م) في دورتها الثالثة؛ وعدم جواز التنازل عنها من البحر إلى النهر، ثم صار الشعار (العودة حق وحتماً سنعود) (1) ... وبمعنى آخر تغيرت حالة التشاؤم والقلق وأضحت نمطاً من التفاؤل الكبير بعد يأس طال العهد به... فحق العودة لم يعد مجرد شعار تلوكه الألسنة، وإنما صار ممارسة فدائية وتطلعاً إلى الاستقلال وحق تقرير المصير... ولم يعد مقبولاً من الصهاينة أن يدنسوا الأرض باستيطانهم؛ ويهودوا التاريخ والثقافة والحياة بتزويرهم الوجه الحضاري الفلسطيني أي إن الشعب الفلسطيني مسح عجزه من النفس ودمعه من العين حين اقتحم جدار الضعف من الداخل والخارج وهدمه وتبنى خطط المقاومة وإسقاط مفاعيل النكبة، وما جرت به بعد ذلك من نكسة للعرب في (5/6/1967م) كما وجدناه عند توفيق زياد (1929 - 1994) الذي ألمه ما حلّ بالأمة نتيجة الهزيمة المرة في حزيران؛ ومما قاله في قصيدته (كلمات عن العدوان): (2)

إنكم تبنون لليوم، وأنا

لغير نعلي البناء

(1) انظر: مجلة العودة - ص 24 - مقال (كبار يموتون وصغار لا ينسون) و ص 26 -

مقال (أم صالح... عندما يروي الأجداد قصة النكبة للأحفاد).

(2) انظر: شعر المقاومة في النقد الأدبي / مرجع سابق.

إننا أعمق من بَحْرٍ وأعلى
من مصابيح السماء
إنَّ فينا نفساً
أطول من هذا المدى الممتد
في قلب الفناء.

أما سميح القاسم المولود سنة (1939م) فقد ردَّ على نكسة
حزيران بقصيدة تناول فيها روح الفداء والبطولة على لسان الشهداء
وحتَّ الأحياء على التشبث بالأرض والدفاع عنها بالغالي والرخيص؛
ومنها: (1)

يا من ورائي
لا تخونوا موعدي
هذي سراييني
خذوها وانسجوا منها
بيارق نسلنا المتمرّد

لقد سقط الشعب الفلسطيني في فخ الجريمة الغربية الصهيونية
المنهجية والمنظمة والعنصرية بُعيد النكبة. فنندر أن تجد أسرة
فلسطينية لم تنكب بفقد أحد أفرادها، أو لم يُدمَّر منزلها.. فكل
فلسطيني عانى من بطش الاحتلال ما لم تحتمله الجبال على المستويين

(1) انظر: شعر المقاومة في النقد الأدبي / مرجع سابق.

المادي والمعنوي.. وكذلك وقعت الأمة في دوامة الصراع العربي الصهيوني إبان ذلك وإثر العدوان الثلاثي على مصر سنة (1956) ونكسة حزيران الأليمة (1967م)؛ ولكنها عملت جاهدة على استنهاض ذاتها الحضارية؛ والخروج من المتاهة التي كادت تسلب قدرتها... متسلحة بالصبر والإرادة وجاعلة أديها في كل أجناسه أسلوباً من أساليب المقاومة⁽¹⁾. فالأمة تشبثت بإرادة الحياة الحرة الكريمة ورفضت الاستكانة للعدو الصهيوني الذي جعل القتل طبعاً وجبلةً، وديناً يتلذذ به من دون أن يجول بخاطره ندامة أو كآبة؛ وتبئى تشويه الحقائق سلوكاً من دون تدمير أو خجل؛ والتزم بتضليل البشرية وسيلة وسلوكاً من دون أن يشعر بالتردد وتأنيب الضمير... فالأدب قدّم نماذج فنية وفكرية تصور العنصرية المهجبة الشرسة للعدو وتفضح تسلطه العرقي الدموي؛ وتقند مزاعمه الدينية الكاذبة، وتميزه بالتطرف الديني ونزوعه العدواني إلى تحطيم الشعب الفلسطيني وطرده من وطنه بكل الوسائل البشعة والقذرة، ومن ثم تزوير التاريخ والهوية والثقافة وفق سياسة الاغتصاب والقهر... وإذا كان الأدب قد عالج ذلك كله فإنه تناوله بروح عاطفية شديدة التمسك بالأرض والتاريخ والهوية... ورفضه لحالة اللجوء والنفي رفضاً مطلقاً، وإصراره على العودة وتجاوز الواقع الأليم.

هكذا باتت ذكرى النكبة محطة من محطات المقاومة وسمة للشعب الفلسطيني المناضل ولا سيما بعد انطلاق العمل الفدائي في (1965/1/1م) وتصاعده حتى عدّ شكلاً من أشكال التحرر الوطني؛

(1) انظر: دراسات في أدب النكبة 59 - 138.

وصارت البندقية رفيقة للكلمة وأخفق الرهان الصهيوني حين ذهب إلى أن الفلسطينيين ثلاثة: واحد سيموت، وآخر سينسى، وثالث أحرق سيقتل عندما يقاوم الوجود الصهيوني. فالمقاومة الفلسطينية تفجرت شعلة وضياء تقوي عزيمة أصحاب الأرض للعودة، وتتبض بالشوق إليها، فهي أرض الرباط وأرض الأجداد؛ وإليها تشد الرحال، ونحوها تتجه البوصلة وهذا ما عبّر عنه أبو سلمى (عبد الكريم الكرمي) بقوله الذي يفيض بالحزن والشجن، ومما قاله:⁽¹⁾

تناديني السفوح مخضبات وفي الأفاق آثار الخضاب
تناديني الشواطئ باكيات وفي سمع الزمان صدى انتخاب
تناديني الجداول شاردات تسير غريبة دون اغتراب
تناديني مدائنك اليتامى تناديني قراك مع القباب
ويسألني الرفاق ألا لقاء وهل من عودة بعد الغياب
أجل سنقبّل الترب المندى وفوق شفاهنا حُمُر الرغاب
غداً سنعود والأجيال تصغي إلى وقع الخطا عند الإياب
نعود مع العواصف داويات مع البرق المقدس والشهاب
أجل ستعود آلاف الضحايا ضحايا الظلم تفتح كل باب

(1) انظر: مجلة العودة - ص 41.

ومن ثم لم تستطع هزيمة حزيران (5/6/1967م) على مرارتها أن تكسر الإرادة الشعبية الفلسطينية، وإرادة الشرفاء والأحرار من المبدعين والمثقفين والقادة، وفق ما عبر عنه أبو سلمى ونزار قباني⁽¹⁾ وغيرهما من الأدباء. فنزار تحوّل بعد النكسة تحوّلًا نوعيًا إلى الاصطفاف جانب الشعب المقاوم وشرع هو وأمثاله يعرّون الواقع العربي السياسي، ويصفون حالة التردّي والقنوط التي سقط فيها الشعب العربي، ويعبر عن الهزيمة بمزيد من الحسرة ولا سيما حين سقط عدد من القادة في أتون الاستسلام والمساومة. لهذا كله لا أمل له بعد رحلة الضياع الكبرى إلا التمسك بالهوية والوجود إلا التفاوض بالمستقبل والأطفال؛ فقال مخاطباً إياهم في قصيدته (هوامش على دفتر النكسة) ومنها:⁽²⁾

يا أيها الأطفال:

من المحيط إلى الخليج، أنتم سنابل الأمان

وأنتم الجيل الذي سيكسر الأغلال

ويقتل الأفيون في رؤوسنا

ويقتل الخيال...

وأنتم الجيل الذي سيهزم الهزيمة

وكانت سورية ومصر قد خاضتا حرب تشرين (1973م) بمساندة

العرب الشرفاء، وانتزعت فيها القدرة على المبادرة وأعدت الثقة إلى

⁽¹⁾ انظر: ملامح في الأدب المقاوم 36 - 39.

⁽²⁾ الأعمال الشعرية الكاملة.

النفس العربية حين حققت أول نصر عسكري في التاريخ الحديث. وأكدت هذه الحرب أن حقّ العودة حق غير قابل للتصرف وفق القرار الأممي رقم (3236) لعام (1974م) ولا يجوز التنازل عنه بصفة شخصية بوصفه حقاً جماعياً ثابتاً متجاوباً مع حق تقرير المصير الذي أكدته الأمم المتحدة لكل الشعوب لعام (1946م) ثم خصت به الفلسطينيين عام (1969م) وإلا فلماذا خاض العرب حروبهم المتتالية وضحوا بأبنائهم من أجل سيادتهم وقضيتهم المركزية!؟

ولهذا كله فإن الأدب المقاوم استطاع اختراق الحصار السياسي والقمع الثقافي الذي مارسه الكيان الصهيوني على الشعب الفلسطيني في خمسينيات القرن العشرين وستينياته؛ وسجّل صفحات نضالية ناصعة آنذاك. ويعد أدباء الأرض المحتلة البارزون في طليعة من مارس ذلك كمحمود درويش وتوفيق زياد (1929 - 1994م) وسميح القاسم (1939م). وعلى نحو ما وجدنا ذلك عند القصّاصين والروائيين مثل إميل حبيبي، وإميل توما و خليل بيدس ونجاتي صدقي وعلي كمال.... وغيرهم ممن أنجبهم الكفاح الوطني⁽¹⁾، من دون أن نتغافل عن الأدباء المبدعين في المنافي ومخيمات اللجوء مثل غسان كنفاني، وجبرا إبراهيم جبرا (1930 - 1994م)... ويوسف الخطيب (1931 - 2011م) ومعين بسيسو (1930 - 1984م) وتوفيق صايغ (1923 - 1971م) و(يحيى بَرزُق 1929 - 1988م) وفدوى طوقان (1917 - 2003م)... فقصيدة (آهات أمام شباك التصاريح) لفدوى طوقان - مثلاً - تحدثت عن المنفى الإجمالي، وما حدث فيه، وقصيدة (مع الغرباء) لهارون هاشم رشيد

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 129/4 - 190 و 202 - 211.

(1927م) تجسدت قيمتها في البحث عن الذات الفلسطينية وتميزها من الآخر⁽¹⁾... فهي شديدة الاتصال بما أحدثته سنوات الجهاد والكفاح ضد محتل صهيوني غاصب للأرض والثقافة... حاول محو الهوية الفلسطينية وتاريخها الحضاري ولكنه أخفق في مسعاه لأن المبدعين أيقظوا الوعي بذلك كله؛ وظلوا قادة مخلصين بالتمسك بفلسطين وجوداً وهوية وثقافة وتاريخاً. ولم تكن الغربية في بلاد المنافي لتوقعهم في الضياع والبكاء على ما تركوه وراءهم؛ وإن كان بعضهم قد فعل ذلك...

وربما كان للمدّ الثوري في ستينيات القرن العشرين أثره البالغ في تنامي التضحية والفداء والمقاومة؛ وارتفاع حدة خطاب أدب المقاومة، وانتشاره في الأفق، وإن ظل متسماً بنبرة الخطابية والحماسة الرومانسية في أنماطه؛ بما فيه الشعر الذي يتناول خطاب الشعراء وما ينبغي أن يكونوا عليه من التزام بقضيتهم، وفق قصيدة محمود درويش (قمر الشتاء)⁽²⁾؛ ووفق ما نراه في شعر عبد الغني التميمي في قصيدته المطولة في خمسة وعشرين مقطعاً بعنوان (رسالة من المسجد الأقصى)، فهي تمزج ما بين الحزن والأسى وما بين الانتفاض والتمرد لهما آل إليه المسجد، والعرب نائمون؛ ومما جاء في المقطع الأول⁽³⁾:

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 33/4 - 47 و 169 ودراسات في أدب النكبة 59 - 138

والأعمال الشعرية الكاملة (يحيى برزق) 210/1 - 211.

(2) انظر: المرجع السابق 58.

(3) انظر: القصيدة التي أعطت الديوان اسمه (رسالة من المسجد الأقصى 67 - 34).

(1)

لم يزل مفتاح بيتي في يدي
لم أزل أحضن ذكرى بلدي
ما عرفت اليأس - يا جلاد - يوماً
هذه آلاتك - اشحذها - وهذا جلدي
لم تزل روحي تحيا أملاً
ثم يقول في المقطع الخامس عشر:
أرسل الأقصى خطاباً فيه نوم واشتياق
قال لي وهو يعاني من هوانٍ لا يطاق:
حدّث الأمة عني
بلغ الأمة أنني
عيل صبري بين أسرٍ واحتراق
هتك العهر اليهودي خُشوعي
من رواق لرواق

وكذلك كان الشعراء العرب أمثال الجواهري الذي رثى
(صبحي ياسين) أحد الشهداء الفدائيين في قصيدته (الفداء والدم)
الطويلة، وانتهى في رثائه إلى أن هذا الدم المبذول سيعيد فلسطين إلى
أهلها، وسيضيء المستقبل مشعلاً على ظلام الهزائم، ومما قاله⁽¹⁾:

⁽¹⁾ ديوان الجواهري 1/340 و356.

جَلُّ الفداء فما ينفك مَأْرِيه لكل مستبسل أَعْييت مَأْرِيه
وبورك الدرب مسحوراً يتيه به نكسٌ ويحتضن الصنديد لاجبه

ثم قال:

سيسافر الغد خَلَّتْه شوائبه مثل الجمام انتفت عنه شوائبه
سيحفر الجيل أجيال تسابقه كما تطاعن قِرْنًا أو تضاربه

وحين يمد الباحث نظره إلى خارج الأرض المحتلة وإلى ما كتب
بالنشر يجد أن المجموعة القصصية الأولى (موت سرير، رقم 12) لغسان
كنفاني، وغيرها من أعماله تعد صورة صارخة عن مأساة الشعب
الفلسطيني. وكان غسان أصدر هذه المجموعة عام (1961م) "يعبر
فيها عن مشاعر النفي والعذاب" وبخاصة القصص الست الأولى، ومنها
القصة الأولى (البومة في غرفة بعيدة) التي تركزت في تناول النكبة
بوصفها ذكرى لا تغيب عن ذهنه في المنفى⁽¹⁾. وقد تمخضت هذه
المجموعة برومانسية عالية، وكانت القصة التي تحمل اسم المجموعة
أكثرها نضجاً على الصعيد الفني، إذ استطاع الفصل بين الواقع
والخيال. وقد تجلت فلسطين لديه بصورة الحبيبة التي اختطفها العدو

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 203/4 والآثار الكاملة - المجموعات القصصية -
(مج 2/ 127 - 209) ومثل ذلك نجده في مجموعته (أرض البرتقال الحزين) التي
صدرت في بيروت عام (1963م) و(عالم ليس لنا - 1965م) و(الرجال والبنادق -
1968م) انظر الآثار الكاملة مج 2/ 273 وما بعدها.

الصهيوني منه... فلا غرابة بعد هذا أن يقوم هذا العدو باغتياله ،
وكذلك اغتال كمال ناصر مع رفيقيه المناضلين أبو يوسف النجار ،
وكمال عدوان في بيروت ، لأنهم كانوا شوكة في حلقه .

وفي هذا المقام فإن الشعر المقاوم وصل إلى أمريكا اللاتينية وأثر
في مبدعيها وأبنائها ولاقى هوىً جارفاً في نفوسهم بوصفه يعبر عما
يعانون منه.... فاستلهموه في قصائدهم وجعلوه مدرسة يتغذون على
تربيتها ، ويعبرون عنها كأبنائها كما نجده على لسان الشاعر
الكولومبي (داسيوس داثا) في قوله: (1)

شُرِّدُوا من أوطانهم

فندروا أنفسهم فدائيين فلسطينيين.

أما الشاعر الإسباني (أنطونيو مورينو) فقد قال في قصيدته
(أغنية إلى فلسطين):

هَدَيْتِي روعك يا أم الشعوب (2)

يا فلسطين الحبيبة

لإلى الأمام صفاً واحداً

أيها الفدائيون الرفاق

(1) فلسطين في الشعر الإسباني المعاصر للدكتور محمد الجعيدي ، يوميات ثقافية
بعنوان (فلسطين في الأدب الإسباني) - جامعة مدريد وجامعة سلمنكة - بالتعاون
مع اللجنة الدولية لحقوق اللغات والحوار) - 11.9 / 3 / 2005م.

(2) المرجع السابق.

إلى الأمام والنصر لنا
شعوبنا سحقت
آباء وأصدقاء لنا قد استشهدوا
النضال قدرنا جميعاً

ثم اخترع الشعب الفلسطيني الحجر الوطني – في انتفاضة الحجارة الأولى في شهر كانون الأول (1987م) واستمرارها حتى عام (1991م)⁽¹⁾ – ليكون صرخة مدوية في الفضاء الإنساني، وطريقاً للخلاص، وقنبلة تتفجر في إرث الحزن والذل والتحرر من مفاهيم النكبة وروحها، ومفاعيل الهزائم التي تبعثها محاولة الانتقال إلى مفهوم بناء الدولة الفلسطينية التي يطمحون إليها، ويرغبون في العيش تحت علمها ثم تبعثها انتفاضة أخرى كانت الأعظم في (2000/9/28 م) يوم دنس أرئيل شارون حرمة المسجد الأقصى، هو وجنوده فتارت ثائرة الشعب الفلسطيني وهباً بانتفاضته التي عبّر عدد كبير من المبدعين الفلسطينيين والعرب عن الحالة الجديدة التي أحدثتها هذه الانتفاضة في الحياة والمواقف والأدب والثقافة.. وتناولت أعمالهم الإبداعية القيم الروحية والبطولية بصور إيجابية رائعة، في صميم التفاؤل بالمستقبل وبنائه كما يريدون، من الشعر إلى الرواية والقصة القصيرة وغيرها⁽²⁾؛ فمن الشعر يمكن أن نشير إلى الشاعر الكويتي

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 977/6 - 1048.

(2) انظر: الموسوعة الفلسطينية 136/4 - 190 والشعر الفلسطيني المقاوم (الباب الثاني: الانتفاضة وانعكاساتها) 69 - 104.

المعروف (أحمد السقاف - 1919 - 2010م) الذي أنشد قصيدة لثورة الحجارة؛ جاء فيها: ⁽¹⁾

ليس عندي كناية واستعاره فقريضي مستلهم من حجارة
هؤلاء الصغار قد أيقظوا الشعـب وهاجوا إباءه واقتداره
وتنادوا من أجل صوت فلسطين من فطوى لمن يحرر دارة
عزل أذهلوا العدو ببأس يعريي وغارة بعد غاره
لم يخافوا وكيف يخشى المنايا من تحدى الردى ليطلب ثاره؛
كفروا بالسكوت واستعذبوا الموت وأعطوه ليلته ونهاره
ورموا خلفهم شعارات قوم والأيادي بالنصر تُعلي الإشارة

وفي القصة يمكن أن نشير إلى القاص الفلسطيني حسن حميد في مجموعته (قرنفل أحمر... لأجلها)؛ فقد أوقف قصصها القصيرة كلها على موضوعة الانتفاضة من (حناء... من نوع آخر؛ وفرار الطبيعة، وما بين صافرتين، وعنوان عبودة) إلى (ليلاً... قرب الجدار... وفي السجن... وقرنفل أحمر... لأجلها...). أبدى الانتفاضة بصورها وأفعالها، جاعلاً المرأة شخصية ذات مكانة خاصة في مواجهة العدو الصهيوني بوصف المرأة الفلسطينية الكائن الأكثر حضوراً داخل

(1) معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين 186/1.

الأسرة الفلسطينية بسبب غياب الرجل اعتقالاتاً، استشهاداً، نفيًا...، وفي ضوء ما يجري لشعبنا الفلسطيني في حياته اليومية؛ من دون أن يهمل أدوار الرجل والطفل في كل أحوالهما وتصديهما لذلك العدو. وهذا لا ينسينا حديثه عن المكان بوصفه متغيراً جديداً في تطور مفهوم المقاومة؛ علماً أنه لم يهمل كل ما يتعلق بعبثات النص من الناحية الفنية، بما فيه غلاف المجموعة⁽¹⁾. ويمكننا أن نثبت في هذا المقام أقصوصة (فرار الطبيعة)⁽²⁾ لنذكر مدى المرارة التي لحقت السماء والأرض من المحتل الصهيوني وزبانيته وحاخاماته...

(فرار الطبيعة) قرب مخيم الدهيشة، في نابلس.. توجد حديقة صغيرة، ناهضة على الخضرة. يلعب فيها الصغار، ويستروح الكبار! أمس، وفي أثناء محاصرة قوات الاحتلال للمخيم، دخل الخواجة حاييم الحديقة "حاييم، الذي يعمل حاخاماً في الجيش، والذي يرافق قوات الاحتلال كواعظ"!

كانت الورود جميلة، راقصة. ونوافير البحيرات، تتراشق بالماء. والأنسام، تتأرجح فوق أغصان الأشجار الداكنة الخضرة! أما الناس، الذين اعتادوا التواجد فيها، في وقت مسائي كهذا.. فكانوا حشو بيوتهم، وأزقتهم، يواجهون رصاص الخواجات بالأعلام الملونة والحجارة.

(1) انظر: (قرنفل أحمر... لأجلها) - فقد ضمت المجموعة ثلاثاً وعشرين قصة قصيرة

أولها (حناء... من نوع آخر) وآخرها (النهاية).

(2) انظر قرنفل أحمر... لأجلها 17 - 18.

وحالما استقر الخواجة الحاخام فوق مقعد خشبي صغير في
الحديقة.. غيّبت الورود جمالها ورقصها.
وقبضت نوافير البحيرات حركتها..
وامتصت الأشجار أنسامها ، وأخفت خضرتها!
حدث ذلك كلّه... عندما لبس الخواجة الحاخام طاقيته السوداء
الصغيرة المثقبة ، وشرع يقرأ في كتاب سميك ، صغير الحجم ،
مكتوب على غلافه الأول: "أسفار العهد القديم"!!
هكذا حضرت الشخصية الفلسطينية المتجددة في انتفاضة
الشعب بمثل ما حضرت في الإبداع داخل الأرض المحتلة وخارجها؛
ولدى أدباء فلسطين والبلاد العربية وغيرها؛ كما نره في شعر ياسر
أحمد علي في قصيدته (الشعب الفلسطيني) التي أنشدها في (13/7/
1995م) ومنها⁽¹⁾ :

أنا الحجر الفلسطيني يجمعني وجمعكم من الأشتات
أنا الحجر الفلسطيني
أنا الجرح الذي نزفُ
أنا النصر الذي أزعفُ
أنا اللحن الذي عزفُ
نشيد النصر والتمكين للدين
أنا الحجر الفلسطيني

(1) خلف أسوار الهوى 61 وانظر - مثلاً - رسالة من المسجد الأقصى 55 - 56.

أما حسن طالب الزريقي فقد أنشد للحجر قائلاً من قصيدته
(أنشودة فلسطيني)⁽¹⁾ :

بدم الشهيد وبالحجر سنخطّ ملحمة الظفر
إننا تهون دماؤنا لما يداهمنا خطر
ولنا الحقوق جميعها والحق حتماً منتصر

فأشعار الانتفاضة "تواصلت مع الحدث المقاوم في الوطن المحتل،
فضوّرتة ورسمت كل امتداداته من خلال فعل وحركة هذه
الشخصية..."⁽²⁾. ويعد نزار قباني في طليعة الشعراء العرب الذين هتفوا
لأطفال الحجارة ومجدوا بطولاتهم...

ولم تتوقف تلك الانتفاضة إلا بمخادعة أمريكية حين أعلن
جورج بوش الأب عن انعقاد مؤتمر مدريد (10/30 - 1991/11/2م) إثر
حرب الخليج الثانية⁽³⁾؛ ومضى العرب آنذاك بحل عادل وشامل للقضية
الفلسطينية، وبقية القضايا العربية المرتبطة بها.

وإذا كانت الدولة الصهيونية قد أنشئت برعاية أممية من
المنظمة الدولية نتيجة الحماية الاستعمارية الأوروبية؛ ثم الأمريكية
والدولية فإنها نمت بضعف العرب، أو خيانة بعض الأنظمة الرسمية

(1) أحلام العودة 48 وانظر فيه 33 و43.

(2) الشعر الفلسطيني المقاوم 104.

(3) انظر من القدس إلى غزة 54 وسورية (الاستهداف والمؤامرة) 95.

العربية الحريضة على الحكم والتجزئة. ولكن الشعب العربي عامة والفلسطيني خاصة أدرك أن الكيان الصهيوني ما ولغ في الدم العربي إلا نتيجة تمزق قراره الموحد؛ وعدم قدرته على إدارة القتال معه... ما فرض على الشرفاء الأحرار من أبنائه أن يستلموا المبادرة لاستمرار المقاومة، واستنفار كل الطاقات لمقاومة كل أشكال التطبيع والمساومة والاستسلام للأمر الواقع... فالدوائر الغربية ولا سيما الأمريكية سعت جاهدة إلى إسقاط مفاعيل النكبة، وانتهاك الكرامة العربية حين خلطت الأوراق بين المقاومة والإرهاب، وزرعت الشكوك في النفوس من كل أنواع المقاومة... وأخذ الكيان الصهيوني يحظى بالاطمئنان والأمن والاستقرار لأن الخلاف انتقل إلى قلب الأمة العربية، وصار الصراع عربياً عربياً، وشرع بعض العرب يهني الصهاينة بقيام دولتهم؛ أي إنهم يهنتونهم بنكبتنا...

ولذلك جرّت الدوائر الغربية والصهيونية بعض أطراف عربية لعقد اتفاقيات مذلة أدت إلى انقسام فلسطيني - فلسطيني، وعربي - عربي في آن معاً، واستطاعت تحجيم العمل المقاوم إلى حدّ ما بعد أن سلبت الإدارة الأمريكية عقول عدد من العرب... ابتداء باتفاقية (كامب ديفيد - 1978م) وانتهاء باتفاقيتي (أوسلو) ووادي عربة (1993م).

وقد جرت مفاوضات سرية مع الصهاينة كما عرف الجميع - آنذاك - بين السلطة الفلسطينية والحكومة الصهيونية، لتنتهي بإعلان اتفاقية (أوسلو) بتاريخ (13/9/1993م) وأوقفت الانتفاضة بعدها؛ وأخذت تُبعد الفلسطينيين عن أحلامهم وأرضهم ما جعل الشعراء

يتصدّون لها كما فعل حسن طالب الزريقي في قصيدته (أكذوبة السلام) ومنها⁽¹⁾:

أحبتني الكرام الكرام...
تمزقت قلوبنا ونحن في المنام
أحبتني فقد رأيت جنيف في المنام

ثم يقول:

ألستم من باعنا ليشترى السلام
بلادنا وشعبنا وديننا وعرضنا
مقابل السلام

ومن ثم برز في هذه المرحلة تياران متصارعان تيار مسالم مهادن مساوم يجعل الاستسلام سلاحاً؛ ويتبنى مفهوم الواقعية السياسية ميدياً وغاية، ويقبل بكل ما يعطيه إياه المحتل الصهيوني الغاصب، وأعلن اليأس من الجهاد والمقاومة، وطفق يكيل التهم للمقاومين. بيد أن المبدعين الأحرار والمثقفين المناضلين وقفوا ينفذون ذلك كله كما وجدناه في قصيدة (المهرولون) لنزار قباني... أما التيار الآخر فهو تيار مقاوم صابر رفض الاستسلام وتزوير التاريخ؛ وجابه النفاق الدولي؛ وتمسك بخيار المقاومة لانتزاع حقوقه كاملة، وإسقاط فكر النكبة

(1) أحلام العودة 18 وانظر مثلاً آخر في (رسالة من المسجد الأقصى 56 و57 و59 - 60 و61 - 67).

وثقافة الاستسلام والمهادنة والتخاذل والعمالة والتآمر... وقد أثبت قدرته على المواجهة بكل صنوفها. فطرد من نفسه عوامل الذهول والوله في الشتات؛ ومزّق مفهوم تسييد الخيمة، وحياة اللجوء، وطفق يحتفل بيوم الأرض في كل عام (3/30) ويوم الأسير في (4/17) ويوم النكبة ويجعل ذلك مبدأ للعودة والنضال..

وبناء عليه لم يعد مفهوم النكبة أو النكسة تباكياً على الفردوس المفقود⁽¹⁾ وحديثاً رومانسياً مؤلماً عن المنايا والخيام؛ وإنما أصبح رؤية نضالية فكرية وثقافية؛ أدبية وإعلامية سياسية واقتصادية... رؤية تهدف إلى مواجهة الاحتلال ومقاومته قولاً وفعلاً لتحقيق الحرية والاستقلال... وبخاصة بعد انطلاق المقاومة، وحرب تشرين التي عدت أول حرب تخترق تحصينات العدو وتصيبه بالأم شديدة. ولعل من أفضل من عبّر عن ذلك الشاعر الفلسطيني ياسر أحمد علي حين وقف عند بوابة (فاطمة) في جنوب لبنان يوم (6/9/2000م) وقد راودته ذكريات شتى فأنشد قصدته (عند الحدود) ومنها⁽²⁾:

وقفت أقبّل الأسلاك شوقاً وأصرخ يا بلاد الحبّ حني
هلمي يا بلادي لاحتفال وعَضّي الجرح لكن لا تئني
نغني لانتصار فيه نحيا ونقلب للدُّنى ظهر المجنّ

(1) وانظر أحلام العودة (ص12 - 13).

(2) خلف أسوار الهوى 20 - 21.

مسحت عيون قلبي قبل عيني رفضت الدمع في ذل لأني
عرفت الحق والدرب الصحيح وزاد تيقني من بعد ظني
فيا جنات الشهداء ميلي ويا أطياراً بالتغريد جُني

فذكرى النكبة غدت نهرًا متدفقًا بالصمود والتصدي لكل
عناصر اليأس الإحباط... وروحاً للنهوض من تحت الرماد؛ ورفضاً
للتشرد والنفى واليأس... فلا صلح ولا استسلام بل صبر على البلوى
وتصميم على تحرير الأرض والإنسان والتمسك بإقامة الدولة
وعاصمتها القدس وحق العودة إلى كامل التراب الفلسطيني وعدم
إضاعته أو نسيانه كما كان الصهاينة يعتقدون أو يزعمون ما يشير
إلى أن الشعب العربي لم يقع في شرك الأساطير الغربية والخرافات
الصهيونية ودعاواها الزائفة، وما نسجته المخيلة الكاذبة لمزوري
التاريخ مثل (أرض الميعاد) و(شعب الله المختار)... فلا بد أن يعود ما
يزيد على خمسة ملايين لاجئ إلى وطنهم... ولعل هذا يثبت أن قضية
فلسطين قضية حيّة في العقول والنفوس؛ ولم تضع في دهاليز اليأس؛
وأنفاق السياسة والخداع الدولي، ومآسي عمليات التطبيع، واتفاقيات
الذل والعار.

خامساً - مرحلة التحدي والمقاومة (2000 - ...):

إن إحياء ذكرى النكبة كل عام منذ سنة (2000م) أكّد حضورها الجوهري على المستوى الوطني والقومي والدولي؛ في الوقت الذي أصبحت فيه منطلقاً تاريخياً لتأكيد الحقوق الضائعة واستعادتها بكل جرأة وثبات وقوة؛ بعيداً عن الحالة الرومانسية، ما يثبت أن صبر الشعب العربي عامة والفلسطيني خاصة قد حقق إرادة البقاء والتشبث بحقوقه وأولها حق العودة وتقرير المصير وإقامة دولته وعاصمتها القدس. فهي حقوق غير قابلة للتفاوض أو التنازل أو التصرف أو الطمس أو التبديل والتغيير والتحريف.. إنها حقوق ثابتة على الصعيد الفردي والجمعي لا تتبدل بتبدل الأزمان وتعاقب الأجيال... لقد ساعده على ذلك انتصارات المقاومة العربية في لبنان عام (2000م) و (2006م) ودعمها تغيرات المشهد الدولي منذ (2001/9/11م)، وعدم قدرة الإمبريالية على فرض هيمنتها بصورة مطلقة وإن غزت البلدان والشعوب كما هو عليه احتلال القوات الأمريكية للعراق (2003م). فقد اتضح لنا من المواقف الدولية وتسيير القوافل من أماكن عدة في الكرة الأرضية إلى غزة⁽¹⁾ وغيرها أن العالم أخذ يرفض سيطرة القطب الأمريكي الأحادي عليه، ما يؤكد أن النكبة غدت ذات قيمة كبرى حين أشعرت العالم بالعجز عن مواجهة الجريمة الإنسانية التي يرتكبها الصهاينة بحق فلسطين؛ بمثل ما أشعرت العرب بأن فلسطين باقية في الأذهان ولن تضيع. وإذا كان من

(1) انظر: - مثلاً - عودة النسور 75.

أبرز نتائج الاحتفال بذكرى النكبة على مستوى الكيان الصهيوني تراجع المفهوم العدواني الوحشي بالانقراض على العرب بين الفينة والأخرى، فإن بناءهم لجدار العزل العنصري يؤكد عودتهم لمفهوم (الغيتو) رغبةً من الصهاينة بحماية أنفسهم من جهة - وهذا دأبهم على مدى التاريخ - وتطبيقاً لمبادئهم في العنصرية؛ وتخطيطاً لعدوان يحضرون له لا يريدون أحداً أن يتعرف إليه... فالكيان الصهيوني ما زال يقوم بدوره في خدمة المصالح الكبرى للإمبريالية العالمية ولم ينته دوره الاستعماري؛ وحينما يفقد هذا الدور العسكري العدواني فإنه زائل لا محالة. وقادته أكثر فهماً لهذا من بقية اليهود والصهاينة.

ونرى أن الأدب المقاوم استطاع بكل صنوفه تشكيل الوعي بالهوية والتاريخ، والوطن والثقافة، يتساوى في هذا الشعر، والقصة والرواية والمسرحية⁽¹⁾، وأدب الأطفال⁽²⁾... فضلاً عن النقد⁽³⁾ والأفلام السينمائية مثل فيلم (الكلمة والبندقية) وفيلم (السكين لخالد حمادة 1971م) المأخوذ عن رواية غسان كنفاني (ما تبقى لكم -) التي كتبها عام 1966م، و(المخدوعون لتوفيق صالح 1972م) المأخوذ عن رواية غسان كنفاني - أيضاً - (رجال في الشمس)⁽⁴⁾... والمسلسلات التلفزيونية كالتغريبة الفلسطينية وما بثته القنوات حول شخصية الشاعر المقاوم (محمود درويش) - مثلاً - وكذلك راح يفند دعاوى

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 217/4 - 237.

(2) انظر: المرجع السابق 241/4 - 251.

(3) انظر: المرجع السابق 345/4 - 423.

(4) انظر: جريدة تشرين ص 11 - العدد 11139

الصهاينة ويكشف نفاقهم وخذاعهم للسيطرة على مقدرات الحياة والإيمان في سياسة التطهير العرقي. ولا يضيرنا أن نشير - قبل أن نستكمل بحثنا بتناول ترجمة أدب المقاومة - إلى بعض المجموعات القصصية والروايات التي عادت إلى أسلوب التوثيق التاريخي، واستدعاء أحداث النكبة وتجارب الكفاح المسلح، عاملة على تشكيل وعي الأجيال بها والتمسك بحق العودة... ولعل المجموعات القصصية الأخيرة التي أصدرها القاص عدنان كنفاني دليل على ذلك ومنها (وتطير العصفير - دار الطارق بدمشق 2005م) و (الهالك - اتحاد الكتاب العرب بدمشق - 2010م) و (قبيل طلقة الفجر - اتحاد الكتاب العرب بدمشق - 2011م).

وكذلك جاءت رواية (بينما ينام العالم) للروائية الفلسطينية (سوزان أبو الهوى) - المولودة لأسرة من لاجئي عام (1967م) لتعبر عن مأساة اللاجئين في الشتات منذ عام (1941م) حتى (2003م) وتعززها بالوثائق التاريخية الممزوجة بالفن الروائي. وتوقفت عند الجيش الصهيوني الذي أتخم بالأسلحة المتطورة، وتشيع بالحقْد والكراهية على البشر والحجر والمدن فارتكب المجزرة تلو المجزرة كما وصفته الرواية، وآخرها مجزرة (جنين - 2002م) لتثبت في نهاية المطاف أن الكيان الصهيوني يرسف بأغلال الحقْد وهو يرتكب الآثام بحق شعبنا في غزة⁽¹⁾... وكانت من خلال ذلك تعود إلى وطنها وهي تروي الأحداث المروعة التي تحدث للشعب الفلسطيني في الداخل والخارج.

(1) انظر: مجلة الطلائع - ص 29 - العدد 1573.

ثم إن الأدب الفلسطيني المقاوم قد تناهى إلى آذان الشرفاء في العالم وتُرجم⁽¹⁾ إلى اللغات الحية كالإنكليزية والفرنسية والإسبانية والروسية والتركية، والفارسية والإيطالية وغيرها؛ ولاقى قبولاً واسعاً ثم خلق تعاطفاً شديداً مع قضية الشعب الفلسطيني، ولاسيما حين أخذ العالم يشاهد الإجرام الصهيوني في ممارسة القتل الجماعي الهمجي على شاشات الفضائيات كما حدث في مجزرة (جنين) التي ارتكبتها قوات الاحتلال عام (2002م)، وحينذاك سجنتم المرحوم ياسر عرفات في مقره، مهددة إياه بالقتل إذا خرج منه...

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نذكر ترجمة كتاب (الشعر الفلسطيني المقاوم) إلى الإسبانية، وكذلك بقية الأجناس الأدبية مثل رواية (رجال في الشمس) المنشورة عام (1963م) ورواية (عائد إلى حيفا) والمجموعة القصصية (قرنفل أحمر.. لأجلها) لـ حسن حميد، وغير ذلك من القصص والروايات والأشعار... فقصيدة محمود درويش (أيها العابرون... عبر الكلمات العابرة) - مثلاً - انتشرت في الآفاق وترجمت إلى لغات عدة وكذا بقية أشعاره، وأشعار سميح القاسم وغيرها... ولهذا لا نستغرب أن تزداد نزعة المقاومة الفلسطينية قوة بعد انتصار اللحم على السيف في غزة (2008 - 2009م)⁽²⁾، وانكسار شوكة العدو الوحشية على الرغم من عدوانه الهمجي البشع الذي استخدم فيه

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية 255/4 - 288.

(2) كانت أول هزيمة تلقاها على يد المقاومة العربية في لبنان عامي (2000م) و (2006م) ثم هُزم مرة ثانية في غزة (انظر ملامح في الأدب المقاوم - فلسطين أنموذجاً).

كل الأسلحة المحرمة... فضلاً عن انتكاسة مسيرة التسوية التي تقودها السلطة الفلسطينية برعاية غربية وبعض أطراف عربية.

فالشعب الفلسطيني يخوض معركة التحرير في إطار برنامج ميثاق وطني مقاوم مرجعيته كل أبناء فلسطين في الداخل والخارج وثقافته ثقافة المقاومة والصبر والتشبث بالوطن والوجود، يسانده كل الأحرار في العالم. وهذا ما يؤكد الأدب الفلسطيني في هذه المرحلة كما نجده في قول الشاعر كل مُقاوم امتشق الحجر الفلسطيني ورماه قنبلة مدوية في وجه الاحتلال الصهيوني كما يقول خليل أحمد⁽¹⁾:

سَحَبَ حجره

واستل مقلاعه

سدّد... رمى

ف

دَوَّى انفجاره...

ويعلنها

صرخة مدوية بأن اللاجئين عائدون إلى فلسطين - لا محالة - بل هم (قادمون) فيقول⁽²⁾:

(1) ومضات 16.

(2) ومضات 23.

تعبت أقدامنا من الوقوف والانتظار
شاخت هاماتنا رغماً عنا
وتلوّنت الطرقات بالدم والدمع الحزين..
لكننا وعهداً نقول، ووعداً نعيش
إننا - ولا بدّ - قادمون...
قادمون...

ونرى هذا الإصرار عند الشاعر مروان مخّول؛ ابن الثلاثين
ربيعاً، والمولود في بلدة (البقية) الجليلية، والملقب بشاعر العودة؛ لأنه
مصمم على العودة إلى أرضه العربية المغتصبة، وهو القائل في قصيدة
له بعنوان (عربي في مطار بن غوريون):⁽¹⁾

أنا عربي !! صحتُ في باب المطار فاختصرت لجندية الأمن
الطريق إليّ
وقلت: استجوبيني، ولكن سريعاً، لو سمحت لأنني لا أريد
التأخر عن موعد الطائرة.
قالت: من أين أنت؟!
من غساسنة الجولان أصل فروسيتي - قلت؛
جار مومس من أريحا؛
تلك التي وشتتُ إلى يهوذا

⁽¹⁾ انظر: مجلة (إلى الأمام - 45 - العدد 2418 - حزيران 2012م.

بالطريق إلى الضفة الغربية يوم احتلها، فاحتلها التاريخ من بعده
في الصفحة الأولى
من حجر الخليل الصُّلب أجويتي.
ولدت زمن المؤابيين النازلين من قبلكم أرض الزمان الخانعة.
من كنعان أبي
وأمي فينيقية من جنوب لبنان في السابق،
ماتت أمها، أمي قبل شهرين،
ولم تودع جثمان أمها، أمي، قبل شهرين.
بكيت بحضنها كي تؤانسها الألفة في البقعة
عند سفح المصيبة والنصيب
لبنان يا أخت المستحيل وأنا
أمُ أمي الوحيدة.

ثم إن معركة الشعب تمتد إلى كل مكان، وفي كل أوان في
سجون الاحتلال الصهيوني؛ ورفض نهج الاستسلام والتخاذل،
والتسويات المذلة، ومواجهة التفاوض العبثي بكل قوة.. وكسر
الحصار والتجويع المميت بكل الأشكال، والإفادة من التضامن
العالمي بقوافل العودة لكسر الحصار وغيرها؛ كما عبّر عنه الشاعر
خليل أحمد في ذكرى النكبة عام (2011م) في مقاطع عدّة من
شعره، فمن المقطع الذي حمل عنوان (عائدون) قوله⁽¹⁾:

(1) ومضات 27 و29.

تسابقوا...
تجمعوا...
تقدموا...
وقفوا أمام الشمس
رفعوا أيديهم عالية...
كانت الشمس تعكس أرواحهم في وجوههم
وكانت فلسطين على مرمى البصر.

وفي مقطع آخر حمل عنوان (آلم النكبة) يتطّلع إلى التخلّص منه
إذ يقول:

توقفت فجأة وهي تبتلع الكلمات
وينسج صدرها بالحنين
كانت توشح عينيها بشوق
عندما قالت بتتهيدتها المعروفة:
جاين!!

فمقاومة الاحتلال الصهيوني صارت في رأس أولويات الشعب
العربي عامة وأبناء فلسطين خاصة ولا سيما المبدعين الذين تصدوا
بأدبهم للعدو الصهيوني وثقافته وأدبياته ومفاهيمه التي اشتغل عليها
لتزييف الحقيقة وإلغاء الشخصية الفلسطينية هوية وكيان... كان
المبدعون على سباق مع الزمن العربي الرديء لتجاوزه، والانتصار على

بؤسه وبؤس التجهيل المعتمد بالقضايا الكبرى أو تهميشها ما استطاع الأعداء والجهلة إلى ذلك سبيلاً...

فإذا ألفينا أنظمة عربية رسمية تلجأ إلى ممارسة التطبيع مع الكيان الصهيوني؛ وتؤسس هزيمة نفسية على مستويات عدة وتروج لسياسة المصالحة معه حتى صارت الخيانة وجهة نظر، فإن عدداً من الأطراف الأخرى كالشعب الفلسطيني المقاوم ومعه سورية وإيران والمقاومة الوطنية في لبنان والشعب العربي وشرفاء العالم قد التزموا جميعاً بخطل المقاومة، وحرصوا على ربط الأقوال بالأفعال. ولا شيء أدل عليه من التصدي للعدو الصهيوني بأساليب مختلفة منذ مطلع الألفية الثالثة التي شكّلت تحولاً نوعياً في الرؤية والموقف على مختلف الصُّعد. ويؤكد هذا التحول ذلك التشكيك الصارخ لدى الصهاينة أنفسهم في استمرار الدولة الصهيونية على ما هي عليه، كما نراه في مقابلة لرئيس الكنيست السابق (أبراهام بورغ) في مقابلة مع مجلة (قضايا إسرائيلية - عرب 48):

"إن استمرار تعريف (إسرائيل) بدولة يهودية ينطوي على موقف مشحون بامتياز، ومن شأنه أن يؤدي إلى نهايتها، ويستحيل أن يتعايش مع تعريفها بأنها ديمقراطية... يجب أن يصبح الشعب اليهودي ودولته جزءاً عضوياً من الأسرة البشرية؛ لا مخلوقاً مستقلاً مميّزاً ومنفصلاً لا ينتمي إلى التاريخ"⁽¹⁾ ونشرت صحيفة (هآرتس) الصهيونية في (15 / 4 / 2012م)

(1) انظر: جريدة الثورة - ص 17 - العدد 14845 - دمشق تاريخ 16 / 5 / 2012 - مقال (في الذكرى 64 لاغتصاب فلسطين... مستقبل إسرائيل موضع تساؤل وجدل) - د. صياح عزام.

مقالاً للكاتب الصهيوني (جدعون ليفي) قال فيه: "إن الدولة وقد أصبح عمرها (64) سنة لا تزال تواجه الأسئلة نفسها وكأنها ولدت أمس، ولا جواب عليها، لا أحد عنده جواب عما سيكون عليه وجه الدولة بعد عشر سنين، بل يوجد من يشككون في مجرد بقائها حتى ذلك الحين، وهذا سؤال لا يثار حول أي دولة أخرى"⁽¹⁾ فهناك تنام للشكوك في الذات الصهيونية وهناك تصميم من الشعب الفلسطيني على المقاومة واستعادة حقوقه كاملة.

ولعل من أبرز الشواهد على ذلك ما جرى يوم (2011/5/15م) في الذكرى (63) للنكبة حين قرّرت كوكبة من الشباب الفلسطيني اختراق الأسلاك الشائكة على الجبهة الشمالية لفلسطين من سورية ولبنان ودخل عدد منها إلى فلسطين المحتلة وبعضهم لا يتجاوز عمره (15) سنة مثل (عمار سمير الخطيب) من قضاء صفد⁽²⁾... بينما وصل الشاب (حسن حجازي) إلى حيفا... فهؤلاء الشبان لم ينسوا فلسطين زحفوا إلى موطن آبائهم وأجدادهم في مسيرة العودة لا يابهن للموت، وما يلقونه في الطريق إليه. وكذلك لم ينس الشعراء أن يؤرخوا لهذه الحالة الثورية في النفس العربي كما نراه عند الشاعر السوري نزار بني المرجة في قوله من قصيدة (صلاة في مجدل الشمس)⁽³⁾:

(1) انظر: جريدة الثورة - ص 17 - العدد 14845 - دمشق تاريخ 16 / 5 / 2012 - مقال (في الذكرى 64 لاغتصاب فلسطين... مستقبل إسرائيل موضع تساؤل وجدل) - د. صياح عزام.

(2) انظر: مجلة العودة - ص 28 - مقال (عمار الخطيب أحد جرحى مسيرة العودة 2011م).
(3) بوح (قصائد مختارة) - 184 - 186 (الشيخ: جبل الشيخ - سلطان: إشارة إلى تمثال سلطان باشا الأطرش في ساحة (مجدل شمس).

- 1 -

القبلة فلسطين...
والجولان سجّاد الصلاة
دمهم ألغى الخرائط كلها
الريح ليست عاتية!!
والظروف مواتيه
للاقتحام... والالتحام
بثراك يا فلسطين!!

- 2 -

كان مطلوباً وُضوء الدم
والتيّمم بالتراب
والقصيدة كانت تسطرّ ذاتها
بيت القصيد:
شطر جريح... شطر شهيد
والقوافل آتية!!

- 3 -

أدّوا الصلاة
الشيخ أمّ جموعهم
سلطان يحرسهم

محرابهم سهل الجليل دمهم أشار إلى الطريق

أما الذكرى الرابعة والستون للنكبة فإنها أتت متزامنة مع إضراب (3000) أسير فلسطيني عن الطعام؛ بات أغلبهم يصارع الموت في سبيل إثبات حقه في استعادة حريته وحرية وطنه. ويعدُّ حسن طالب الزريقي من أحسن الشعراء الذين عبَّروا عن أمنيات الأسير إذ قال في واحدة من قصائده بعنوان (أمنيات أسير) ومنها⁽¹⁾:

الصبر أفنيته والصبر يحتضر وأعظم الصبر مأسور وينتظر
يا من يواسي فتى والنار تحرقه من كان في النار في أذانه وقر
أقلب الطرف في الأصحاب أرقبهم الفقير مختبر والسجن مختبر

فمعركة الأسرى تهدف إلى تحريرهم دون قيد أو شرط، أو تمييز وتصرُّ على تطبيق المعاهدات والمواثيق الدولية ولا سيما اتفاقية جنيف الرابعة، ومختلف مبادئ حقوق الإنسان والقانون الدولي؛ وتؤكد رفضهم لكل أشكال التخاضل العربي لاغتصاب الأرض والوطن والحقوق. وكذلك قام الشعب الفلسطيني بإضراب عام في الضفة الغربية وقطاع غزة رداً على السياسة الصهيونية العنصرية والظلمة التي يمارس فيها أبشع أنواع العنف ضدهم؛ ما أدى إلى وقوع

(1) أحلام العودة 14.

مواجهات عنيفة زاد فيها عدد الجرحى على (270) جريحاً في الضفة وغيرها...

وقد أتى ذلك كله مترافقاً مع قيادة المناضل البريطاني (جورج غالاوي) لقافلة (حق العودة - رقم 12) للتضامن مع شعبنا في غزة وفك الحصار عنه والاطلاع على وضعه المأساوي ولفت أنظار العالم إلى هذا الحصار الصهيوني وما خلفته فيه آلة الفتك والدمار من فظائع، من دون أن يتحرك ضمير بعض الحكومات الرسمية غرباً وشرقاً.... وتضم القافلة المؤلفة من (16) حافلة (30) متضامناً من دول مختلفة. وقد انطلقت من أوروبا يوم (2012/4/22م) وعبرت سبع دول منها إلى تركيا ثم تخطت معبر (كسب) على الحدود السورية في (2012/5/9م)... ووصلت إلى غزة بُعيد (2012/5/15م) بعد أن انضم إليها متضامنون آخرون من الأردن ومصر. فالقافلة تمثل وعي الشرفاء الأحرار من دول العالم دعماً لحق الفلسطينيين بالعودة إلى وطنهم، ومساندتهم لهم بطلب الحرية والاستقلال واستقبالها أهلنا في غزة استقبال المستبشر بالمستقبل المنشود. ونرى أن القوافل التي اتجهت إلى غزة وغيرها؛ أو تلك المسيرات التي واكبت ذكرى النكبة، وما شددت عليه مناهج التعليم، والندوات الثقافية والأدبية؛ فضلاً عن إحياء يوم الأرض ويوم الأسير قد زاد الوعي بحضور النكبة في النفوس والأمل بالتححرر منها، وإعلان الدولة الفلسطينية المستقلة... ومن ثمة فإن الذكرى (64) للنكبة تدل بما لا يقبل الشك على الارتباط بفلسطين، وتوحيد الجهود الوطنية والقومية لجعل القضية الفلسطينية - من جديد - قضية الحياة والوجود في مواجهة المشروع الصهيوني الاستيطاني الاستعماري

كما توحى بأنها قدّمت للشعر المقاوم روحاً إحيائية جديدة لا تقل عمّا قدمته الذكرى الثالثة والستون بعد أن أخذ الفتور يدبّ في أوصاله؛ متذكرين قول الشاعر الراحل يوسف الخطيب:

داري وفي العينين والشمطين نجواك لا كنت نسل عروبتى إن كنت أنساك

ثم إن النكبة في السنوات الأخيرة أثبتت أن قضية فلسطين لم تعد قضية شعب فلسطين وحده بل غدت قضية وطنية عربية إنسانية، وكذلك هي قضية القدس والمسجد الأقصى؛ ولا بدّ للاجئين من عودتهم إلى وطنهم والتخلص من آثار النكبة كما نراه عند الشاعر السوري محمد توكلنا المولود في دمشق (1959م) والمجبول بقضية فلسطين، وكأنه لا يختلف عن أبنائها؛ إذ قال⁽¹⁾:

**لا تُشكّي - حبيبتي - بأيابي وارقبيني فقد نشرت ضلوعي
أنا أتو برغم عمق جراحي وحصاري وبُعد داري وجوعي
ورفاقي صبري ومفتاح بيتي وحنين المشرّد المفجوع
في تراب الآباء جذري مقيم ونمت في أرض الشتات فروع
كنت فرحاً لكنني اليوم سرّب من نسور تواقفة للرجوع
فإذا نادت الحبيبة نسرأ فالملبّون ألف ألف سميع**

(1) انظر: عودة النسور 54 - 55 ومجلة فلسطين المسلمة - ص45 - 55 - العدد الأول - السنة الثلاثون - كانون الأول 2012م.

فالمبدعون قادرون على إعادة تكوين الذائقة السليمة لمعرفة الحقيقة؛ وإثراء الذاكرة بالقضايا العربية؛ وجعل النكبة عاملاً تحريضياً من أجل تحرير فلسطين من البحر إلى النهر... فضلاً عن تحفيز زملائهم وبقية الأحرار من مثقفي العالم على التعاطي مع الأحداث المتغيرة حتى يتحقق هدف أبناء الأمة في إزالة الغمّة عن صدرها.

وحيثما يكون المبدعون طليعة في التمسك بثوابت الأمة وقضاياها؛ وصادقين في التعبير عنها فإنهم يضعون أبناءها على الجادة الصحيحة؛ من دون أن يضيعوا في دهاليز السياسيين؛ وانحراف بعض المثقفين الذين أضعوا اتجاه البوصلة الوطنية.

وتبقى كلمة أخيرة لا بد من ذكرها؛ فالنكبة ليست مجرد هزيمة جرت أحداثها في فلسطين حين اغتصب الصهاينة الأرض ودنسوا المقدسات؛ وهودوا الثقافة والتراث والعادات... وإنما النكبة - أيضاً - هي تلك التي شرعت تتجسد في الجسم العربي برمته؛ حين بدأ السرطان الصهيوني يدب فيه ويتلف أعصابه رويداً رويداً، فأزال منه مناعة المقاومة حتى تخرقته كل أشكال التطبيع والاستسلام، والافتتال بين أبناء الأمة؛ حين تحول الصراع من صراع عربي / صهيوني إلى صراع عربي / عربي؛ ما يعني أن الكيان الصهيوني قد حقق لنفسه الوضع المثالي... ثم إن النكبة أضحت منذ السنة الماضية على المستوى العربي متخنة بالجراح وعلى المستوى الوجودي والخلقي مصابة بأدواء قاتلة... فإذا ولد الاستعمار الغربي / الأمريكي / الصهيوني وهو مسكون بالعنف والقتل والتدمير والتخريب فإن الشعب العربي صار

مسكوناً بحريته وكرامته وأمله في المستقبل وإن ابتلي بالتمزق
والفتنة والانقسام والمصائب والآلام... ولا شيء أدل على ذلك من قصيدة
بعنوان (لي وطن هناك) للشاعرة الفلسطينية (آية الريماوي) تلخص
فيها مسيرة قضيتنا المركزية؛ وتكثف ما كان هذا البحث قد
توخاه، وفيها تقول⁽¹⁾:

لي وطن هناك...

لي زمن هناك...

لي ابنة أسميتها فلسطين...

ابنة كبرت بالدم والطين...

توجتها بقبة الأقصى...

وترعرت في بيارات يافا وحيفا

واليساتين...

والدها شهيد

وأخوها جريح

والأسر منزلها

وسميت عائلتها لاجئين؛

على الحدود تحيا

مولدها النكبة

(1) انظر: مجلة (الهدف - ص39 - العدد 1450 - دمشق - 2012/5/15م).

والنكسة طفولتها...
إخوتها سلّبت حياتهم في دير ياسين...
لعبتها هي الحجارة...
لا تخاف قصفاً أو غاره...
ففي غزة هناك... اعتادت فوضى الأصوات وانقطاع الإنارة...

...
ابنتي عربية رغباً عن أنف الدول العربية
لإبنتي بحر من دم لا ينضب
ولها ابن صغير... مقاوم... ثائر
يموت في سبيلها... يجاهد في سبيلها
ولا يتعب...
لها ابن أو أو ألف ابن وأكثر
لها فلسطيني أصيل لها يثار
لها أصالة وعروبة...
لها القداسة وأكبر...
لي ابنة أسميتها فلسطين...
يصمت العرب
وعلى نحر ابنتي ألف سكين.

فهذا النص وكل نص سبقه يؤكد الثبات الأسطوري للشعب الفلسطيني على حقه في وجه آلة الفتك والقتل الصهيونية وجرائمها التي لا تتوقف بحقه.... فالاحتلال الصهيوني طوال العقود الستة الماضية حاول كسر إرادة الفلسطينيين في الداخل والخارج؛ وصمم على مصادرة الشخصية الفلسطينية؛ وتذويها لكيلا يتذكرها أحد... ومن ثم مضى هذا الكيان في عملية استيطان منهجية وإقامة مستوطنات صهيونية تبتلع الأرض والمنازل والمقابر... وتهدف إلى عملية تهويد لا مثيل لها... ولكن إرادة الشعب الفلسطيني وعدم استسلامها للأمر الواقع، ولعمالة الأنظمة البائسة تصدّت لكل ذلك... وردّت عليها بالتحدي والثبات على التمسك بالأرض والعودة إليها والدفاع عنها، ورأت أن العودة حتمية؛ وأن الانتصار قادم لا محالة.... فهناك رؤية نافذة مصممة على حق تقرير المصير على كامل التراب الفلسطيني من البحر إلى النهر، وإقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس... فلا تنازل ولا تراجع عن المقاومة بكل أشكالها... ولن يضيع حق وراءه مطالب.... فالأجيال لم تعد ترى في نكبة (1948م) قدراً مقدوراً لا يمكن التغلب عليه، فقد عرفت طريقها إلى الانتصار، من دون أن تتهم أحداً بالخذلان وتضييع الأرض والكرامة.. ففلسطين ثابتة في القلوب، ومتجذرة في العقول تجذرها في التاريخ الحضاري، والشخصية الفلسطينية لم تتحول يوماً أو تتبدل أمام كل الأحوال الطارئة والضاغطة، وسيظل لها رائحة العشق الأبدي...

لذا لا بدّ من إعادة تربية الذات الوطنية وتوحيد مبادئها وإذكاء روح القيم الأصيلة لتحقيق الأمل في كينونة الوجود، وتحقيق الحرية

والعدالة الإنسانية والاجتماعية... وهذا يحتاج منا إلى التصميم على مبادئنا الوطنية والقومية؛ والتمسك بحق العودة إلى فلسطين من البحر إلى النهر؛ وتطوير مناهجنا التربوية والثقافية بما يخدم مفاهيمنا وأهدافنا التحررية والنضالية⁽¹⁾ وإحياء ذكرى النكبة على كل مستوى وصعيد لتكون تأجيلاً للوعي بذلك كله. وما من أديب فلسطيني مقاوم استطاع إلا وضع نفسه في خدمة قضيته؛ لكن غسان كنفاني ظل متميزاً من دون الجميع - كما نراه - وهو الذي رأى أن قضيته فلسطين هي قضية الإنسان ما يدعونا إلى الوقوف عند قراءة فكرية تحليلية لروايته المشهورة (عائد إلى حيفا) وهي قراءة موجزة ومكثفة.

سادساً: قراءة فكرية تحليلية: (المكان المقاوم والمقدس - عائد إلى حيفا؛ أنموذجاً).

يركز هذا التحليل على الفضاء المكاني (Space) ليس بوصفه قيمة طبيعية وجمالية وإنما بوصفه قيمة دلالية وطنية ورؤية ثقافية تختزن في ذاتها وظائف شتى نفسية واجتماعية وفكرية وسياسية تؤصل العلاقات أو السلوكيات التي تنشأ بين الإنسان والمكان، فقانون التجاور مع المكان يؤدي إلى تأثيرات متصاعدة، لتغدو آليات ذاتية وموضوعية تجاور المكان ذاته إن لم تصبح جزءاً منه. فإذا كانت الاستجابة الشخصية تتأثر بالدوافع الداخلية فإنها تتأثر في أن

(1) انظر: قضايا في الفكر السياسي والقومي 109 - 122 و189 - 222.

معاً بالدوافع الخارجية، وفق ما يسمى علم النفس البيئي، كون الخصائص الذاتية تنشأ في صميم الخصائص الموضوعية للمكان والزمان والثقافة، ما يؤدي إلى أسباب الرفض أو القبول أو الجاذبية إلى الانتماء الحي والفاعل.

ولهذا كله فإن مقاييس الإدراك المكاني عملية معقدة تنشأ نتيجة تلك الدوافع، وهي التي تبني مفاهيم وأهدافاً وقيماً تختلف باختلاف المكان والزمان، ومن ثم تنتج السلوك المرتبط بهما... ولهذا عرّف (دوجلاس داوسن Dawson) الجغرافية السياسية بأنها "نتيجة لإحساس الإنسان بالإقليم الذي يعيش فيه، ورغبته في عزل منطقة ما يستطيع أن يحتفظ بطابعه الثقافي ويصنع مستقبله السياسي"⁽¹⁾ بها. وتناول غاستون باشلار المكان متساوفاً مع الفضاء المكاني حين قال: "إن المكان هو المكان الأليف، وذلك هو البيت الذي ولدنا فيه، أي بيت الطفولة؛ إنه المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة وتشكّل في خيالنا. فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات الطفولة، ومكانية الأدب العظيم تدور حول هذا المحور"⁽²⁾. ومن ثم يعيش المكان في ذات المبدع فضاءً دلاليًا يتداخل في الزمان والذكريات والأحداث، ويتمهى في الصور الفنية التي يعرضها له، ولا سيما حين يعيش حالة الاغتراب عنه.

(1) انظر: "مفهوم ظاهرة الإدراك ومدى توظيفها في ميدان الجغرافية السياسية" - إبراهيم محمد علي الفقي - مجلة جامعة الملك سعود - مج 21 - الآداب - كانون الثاني/ يناير 2009م - ص 233.

(2) انظر جمالية المكان - غاستون باشلار - ترجمة غالب هلسا - 1984م - ص 6.

وفي ضوء ما تقدم ندرك أن الخارطة الذهنية تتأثر اطّراداً بالمشاعر والأحداث التي تجري في المكان الذي يولد فيه المرء ويعيش فيه وتصبح الحواس منافذه إلى ذلك كلّه ومن ثم تصبح العين مرآة الروح والخيال، ويغدو القلم زفرة لجوهر الكلام المتألق والمعبر عن حساسية تلك المرأة.

وحين يصمم الروائي روايته يبدأ من نقطة ما تاريخية أم مكانية أم زمانية، نفسية، أم واقعية، أم اجتماعية.. ثم يحيل ملامح تلك النقطة الفنية إلى مشاهد حيّة وفصول تبحث في كل ما يفرضه العمل الروائي الممزوج بالواقع المقاوم من حوله... وتعد الرواية المقاومة جامعة لمفهوم الدراية في تصميم واقع فني إبداعي مرسوم بكل عناية ودقة...

وحينما نخص المكان المقاوم والمقدس في الرواية الفلسطينية فإننا ندرك أن المكان الروائي يرمز إلى فلسطين كلها؛ إذ أضحت مفهوماً مقدساً يرتبط بالانتماء الصافي والتّوق إليه، والتعلق به، وإن كان الروائي قد اختار أمكنة دون أمكنة، وهي تلك التي عاينها ورآها... وقد تناولت الرواية الفلسطينية - وكذلك الرواية العربية - كل أشكال المكان وتحولاته... وهذا ما يمكن أن يتبيّنه المتلقي في روايات عربية عدّة مثل روايات (جبرا إبراهيم جبرا - وإميل حبيبي - ورشاد أبو شاور).

ويمكن للباحث أن يجد في المكان الروائي عند (غسان كنفاني) ضالته؛ إذ يرى فيه خصائص رحلة البحث عن الوجود والوطن والقيم والمبادئ الإنسانية النبيلة. فالمكان عنده يستدعي الرؤية ذات الأبعاد النفسية والاجتماعية والفكرية زمانياً ومكانياً،

ولاسيما حين يتخذ لذاته بعداً نضالياً رؤيويًا؛ أي إنه يمتلئ بحس الانتماء الصادق والمقدس امتلاءً غير عادي، إذ لم يكن لديه خيار إلا أن يكون إلى جانب المكان الذي ولد فيه وعاش، ما جعله يصبح قضيته الأولى سياسياً وفكرياً و...

وإذا كان هذا القسم لا يستطيع تناول المكان في رواياته كلها فإننا نختار دراسة المكان في روايته (عائد إلى حيفا) بوصفها أشبه بتوثيق تاريخي نضالي وطني لمجابهة مخاطر الشتات والاعتراب الداخلي من جهة؛ وبوصفها تتحدث عن العذابات التي يعيشها الفلسطيني بعيداً عن بيته وداره ووطنه من جهة أخرى⁽¹⁾. وكانت قد نُشرت في عام (1969م) بعد عشرين عاماً من نكبة (1948م) وإثر نكسة (1967م).

فالرواية تجسد حالة ضياع الانتماء إلى المكان، وحالة الضياع في أرض الشتات، واللهاث وراء حلم العودة دون أن يكون هناك فعل موضوعي لتحقيق هذه العودة إلا الجري وراء المشاعر الذاتية والوطنية، وهو الذي تناول أمكنة شتى من يافا إلى رام الله والقدس وعمّان و...

فالحديث عن هذه الأمكنة يتداخل في صميم واقعية مثيرة وهو يرسم ملامح الأحداث في الرواية تارة في إطار السرد وتارة أخرى في إطار الاسترجاع والخطف خلفاً إلى بداية زمن النكبة...

(1) انظر الرواية في الآثار الكاملة - مج1 / 341 - 414، وعائد إلى حيفا وأعمال أخرى - 22 - 81.

فالفضاء المكاني في رواية (عائد إلى حيفا) فضاء واقعي وكذلك هي الأحداث التي تجري فيه، وكل منها ولدت من رحم الحقيقة التاريخية التي تؤكد مشروعية الانتماء إلى المكان.

ولهذا فهو يرجع إلى واقعه وتاريخ وطنه ليحيل منهما واقعاً فنياً مميزاً، ويجعل المكان منجزاً روائياً نضالياً يعيش في فضاءه الحر الذي تستدعيه مشاعره ومخيلته، وذاكرته المنفتحة على الآخر، وعلى الواقع الراهن والتاريخ، ولا سيما حين يحدثنا عن المعارك التي جرت في (يافا) ضد الصهاينة.

ويستغرق ذلك كله بلغة فيّاضة، سهلة وجميلة؛ جاعلاً البطل (سعيداً) هو صوت المؤلف - غالباً .. وهو ما انطلقت منه الرواية؛ إذ قال: "حين وصل سعيد. س. إلى مشارف حيفا، قادماً إليها بسيارته عن طريق القدس أحس أن شيئاً ما ربط لسانه، فالتزم الصمت، وشعر بأن الأسى يسكنه من الداخل. وللحظة واحدة راودته فكرة أن يرجع... وفجأة جاء صوت البحر تماماً كما كان، لا، لم تعد إليه الذاكرة شيئاً فشيئاً بل انهالت في داخل رأسه..." كان المكان يتحرك كما الإنسان، وكأنهما صورة واحدة تعبر عن الحكايات التاريخية الموثقة بكل ما فيها من خيبات وآمال، ثم إن حركة المكان هي حركة مشاعره وعواطفه وأفكاره؛ وهي حركة ناسيه وقد انبجست الحياة من الموت، والتجدد من الأندثار، والبقاء من الزوال.

ومن يتناول المكان المقاوم في رواية (عائد إلى حيفا) لا يمكنه إلا أن يبتدئ بالعنوان، وهو عنوان مباشر يضعنا في إطاره الزماني/ النفسي، والنضالي/ الفكري الذي يتجاوز محنة اللجوء والتشرد على

الرغم من شدة الحياة البائسة التي كان يعاني منها هو وأمثاله من أبناء الشعب الفلسطيني وهو القائل على لسان عجوز نازح في الخيام: "تريدني أن أحدثك (يا سيدي) عن خروجي من فلسطين، لا بأس... سأحدثك، ولكن كل إنسان يعرف القصة، اجلس هنا... لو أتيت إلي يافا لكنت استقبلتك بشكل حسن، ولكن لا بأس سنعود لها يوماً ما، وسأستقبلك هناك"⁽¹⁾.

فالعنوان يطالعنا بروح الثورة على حالة الضياع التي نُكب بها غسان، ومن ثم طفق يتلمس تجاوز حالة القهر والذل والتمزق، ما جعله يحرص على إنهاء حالة العيش في خيام الجوع والشتات.. فمحنة المخيم الذي عصفت فيه الريح ولوى الفقر والبؤس أعواد خيامه، وحالة التشرد المستمر في المنايا في فرض عليه الأمل بحلم العودة إلى حيفا ما أدى إلى كتابة العنوان وفق جملة اسمية تقريرية ثابتة في الزمان والمكان بوصفها حقيقة مطلقة (عائد إلى حيفا).

وهكذا فإن ثمة معيارية تستتير بها ذائقة الروائي بالعنوان الذي يسطع رؤية زمانية وفكرية ثابتة وانتهاءً بالقيمة الفنية المرسومة لذلك المكان الذي يتقيأ ظلالاً مقدسة تتسكب في الأرواح من خلال التفاصيل الروائية.

ثم إن العنوان يعدّ ردّاً قوياً على مفاهيم (المنايا) القسرية والانتقال فيما بينها وراء التقاط لكمة الحياة... فالعنوان - بهذا الوعي - تعبير عن القلق الوجودي الإنساني الذي يعاني منه ليل / نهار.

(1) معارج الإبداع 85.

ولعلّ ما ورد في صميم أحداث الرواية يؤكد ذلك فبطل روايته (سعيد) لم يستطع أن يجد في الأماكن المفتوحة التي انتقل إليها مكاناً حيويّاً أو بديلاً له عن المكان الأصلي (حيفا) أيّاً كان قربه منه، مثل (يافا) وغيره... كان يرى في كل مكان ينتقل إليه مكاناً نفسياً مغلقاً باثناً للقلق والحزن... وهذا يقوّي لديه مفهوم ثبات المكان الروحي المرسوم في خياله لمدينته (حيفا) بوصفه مكاناً مقدساً لا يروم بديلاً عنه. وحين يتعلق سعيد بحيفا، ويصرّ على العودة إليها فإنه يصرّ - في آن معاً - على العودة إلى بيته دون غيره من بيوت حيفا، ليثبت انتصاره على حالة الاغتراب الزماني/ المكاني. ولعلّ هذا نفسه هو الذي جعله يصوّر الأماكن البعيدة عن مكان الولادة والنشأة بأنها أماكن قاتلة، وهو ما عبّر عنه في روايته (رجال في الشمس) وكان قد نشرها في بيروت عام (1963م).

فسعيد متعلّق ببيته، وهو ما يشي بفكرة مقاومة التشرد والتهجير؛ والنفي القسري والطوعي، ومن ثم يصبح المكان /البيت رمزاً مقاوماً لكل صنوف التغيير والتزوير والتدمير والتخريب مادياً ومعنوياً...

أي إن الحديث عن المكان يتعلق بالبيت ورموزه المتنوعة، فالبيت عند غسان كنفاني رمز حي للوجود الأول لمعانقة الإنسان للحياة، وهو يجسد حالة الكينونة الاجتماعية والثقافية ويقدم الوظائف الأولى لماهية الوطن، كونه المبدأ والأصل للهوية الوطنية وللقيم والخلق...

فالبيت من جهة يشير إلى ملامح الحياة البائسة المعطوبة والموحشة ومن جهة أخرى يسبح في شغاف الرغبة المطلقة للتحرر من

تلك الوحشية، وهو ينكشف عن أسرار عميقة غير هشة ولا رخوة. إنه يتطلع إلى الماضي الحزين ليراه ممتداً في المستقبل القادم وقد اكتسب بهاء المتألق عن طريق الصبر والثبات والصمود كما الإنسان المقاوم الذي انزعت فيه رغبة التحدي والكفاح لكل أشكال القهر والاستبداد والاحتلال...

فالمكان / البيت عند غسان مكان مقاوم وثابت في الجغرافية والتاريخ والثقافة، يوقظ كل النائمين تحت التراب... ما جعله يجذبنا إلى فضائه كلها ليصوغ منها جنته الموعودة؛ وقد ظلت صورته هي هي لا تفارقه، وكذلك كانت غرفه وجدرانه والأشياء التي تركها فيه والأزقة المحيطة به...

لهذا فما إن عاد إلى بيته حتى أخذ يجول في أنحاءه باحثاً عن كل صغيرة وكبيرة تركها فيه؛ كان يتحرك في زواياه دون شعور منه فيروم الأشياء التي علقها هو وزوجته على الجدران والزوايا، كانا يحرصان على تزيينها بالمزركشات واللوحات... وحين كانت اللوحات تتغير وتتبدل - معبراً فيها عن رمزية التبدل السياسي الاستيطاني وحلول الصهاينة محل السكان الأصليين - فقد أصر على إبقاء صورة القدس معلقة على الجدار، فيقول: "ثمة صورة للقدس يتذكرها جيداً، ما تزال معلقة حيث كانت حين كان يعيش هنا. وعلى الجدار المقابل سجادة شامية صغيرة كانت دائماً هناك - أيضاً.. وأخذ يخطو ناظراً حوالياً مكتشفاً الأمور شيئاً فشيئاً". فغسان كان حريصاً على استعادة الخارطة الذهنية لأجزاء المكان / البيت وكل ما جرى فيه، أو لنقل كانت الصورة الخيالية تستعيد الصورة الواقعية القديمة

الثابتة في ذاكرته ومشاعره ما يعني أن ذاكرة المكان ثابتة في عقل سعيد وصفية لا تبرحه تقاوم التغيير والتحريف والتزوير الذي يمارسه الصهاينة؛ أياً كانت العذابات التي صادفها غسان في المنايا على اختلاف مراحل اللجوء والنفي وهو القائل "المنزل ذاته ذلك الذي عاش فيه، ثم عيَّشه في ذاكرته طويلاً، وها هو الآن يطل بمقدمة شرفاته المطلية باللون الأصفر"...

لهذا استفزت الأشياء الجديدة للزينات عقلهما ومشاعرهما لأنها حوّلت المكان عن جوهره الأصيل، ولاسيما حين عمدت إلى حالة تغيير ملامحه ملامح اجتماعية تاريخية ثقافية تتجه قصداً إلى تغيير الذهنية المعرفية والنفسية الوطنية للأجيال الناشئة... وهذا يتقاطع مع الثقافة التي كان يتلقاها (خلدون/دوف) في تلك الأسرة اليهودية. ولعل ما يلفت المشاعر والعقل أن سعيداً وزوجته كانا يتفقدان كل ما تركاه فتسمرت عيونهما عند طاولتين قديمتين لهما في غرفة الجلوس، وقد استوطن إلى جانبها - بأسلوب غير منسق - ثلاثة مقاعد جديدة... كان غسان حريصاً على رسم صورة المقاعد مبعثرة وكأنه أبقى أن يجتمع القديم الفلسطيني إلى جانب الجديد الطارئ، وأن التحول المؤقت في أثاث البيت إنما يرمز إلى المحتل الصهيوني الذي سيطر على البيت وأثاثه إلا أنه لن يستطيع أن يحوي معاملة، أي معالم العروبة الأصيلة بناءً وأساساً، تشكيلاً وأثاثاً، لوحات وشجراً و... وكل تحول مؤقت لا يمكنه أن يغيّر جوهر الحقيقة التي ترمز إلى التعلق بالوطن، ولا بد للمحتل الاستيطاني الاستعماري أن يرحل. وهذا ما عبّر عنه جلياً في حوار مع العجوز السمينة مغتصبة البيت إذ "قالت ببطء: أنتما أصحاب

هذا البيت، وأنا أعرف ذلك. كيف تعرفين؟ جاء السؤال من سعيد وصفية في وقت واحد. وزادت العجوز في ابتسامتها ثم قالت: من كل شيء من الصور، من الطريقة التي وقفتما بها أمام الباب".

وهذا يثبت أن الأشياء كالأفكار والمشاعر ترتبط بالمكان/الزمن ارتباطاً ثابتاً يجسد رمزية وهج الحلم للشعب الفلسطيني الذي يصرّ على التشبث بوطنه والعودة إليه.

فالبيت بجارته وأبوابه ولوحاته وأثاثه ثابتة في الخارطة الذهنية، وهي تؤكد أصالة الانتماء والتوق المتنامي إليه أياً كانت أحداث اللجوء وحالات النفي والتهجير...

وحين نتحدث عن البيت فلا بأس أن نتوقف عند الطفل (خلدون) الذي سمته الأسرة الصهيونية (دوف)... وكان سعيد وزوجته قد ذهلا عنه وخلفاه وراءهما نتيجة العنف الوحشي الذي ارتكبه الصهاينة بحقهما وحق أهل حيفا. كما يدل عليه قوله: "وانقلبت شوارع حيفا إلى فوضى، واكتسح الرعب المدينة التي أغلقت حوانيتها ونوافذ بيوتها. كان (سعيد. س) في قلب المدينة حين بدأت أصوات الرصاص والمتفجرات تملأ سماء حيفا، كان قد ظل حتى الظهر غير متوقع أن يكون ذلك الهجوم الشامل، وعندها حاول للوهلة الأولى أن يعود إلى البيت بسيارته... إلا أن القتال كان قد اتسع... وبعد لحظات شعر سعيد أنه يندفع دونما اتجاه، وأن الأزقة المغلقة بالمتاريس أو الرصاص أو بالجنود إنما تدفعه دون أن يحس نحو اتجاه وحيد..." وحين فارق سعيد بيته وولده تحت ضغط التوحش الصهيوني فإنه لم يفارقهما روحاً ورؤية، ومن ثم لم يقنط سعيد من الغد القادم الذي سيجمعه

بهما... آمن سعيد بأنه لن يكون طعاماً للجوء والتشرّد واليأس لذا كان مصراً على العودة إلى البيت (الوطن) وإلى من بقي فيه من الأهل والأبناء والإخوة والأحباب، ولاسيما أن نكسة حزيران (1967م) قد أيقظت في نفسه مشاعر الانتماء الوطني. ولهذا طفق يعبر عن واقع الهزيمة والأمل بالمقاومة، ما يعني أن شخصية سعيد التي اتّصفت بالضعف والعجز والاستسلام منذ ترك ابنه (خلدون) وراءه مساء الخميس (1948/4/22/) قد ثارت على دموعها وضعفها لتتحول إلى شخصية مقاومة عاملة على العودة إلى فلسطين، ما جعله يقبض على مقود سيارته وينعطف على أمه بالعودة إلى بيته/ وطنه.

وهذا ما تأسس في خطابه لزوجته (صفية) حين خاطبها: "ما هو الوطن؟... ثم سألته برقة يكتنفها الشك: ماذا قلت؟.. سألت: ما هو الوطن؟! وكنت أسأل نفسي ذلك السؤال قبل لحظة، أجل ما هو الوطن؟! أهو هذان المقعدان اللذان ظلّا في الغرفة عشرين سنة؟ الطاولة، ريش الطائر، صورة القدس على الجدار، المزلاج النحاسي، شجرة البلوط، الشرفة؟! ما هو الوطن؟ خلدون، أو هامنا عنه، الأبوة، البنوة؟ ما هو الوطن؟!"

فالوطن ممتد في ذاته، متجذر في إرادته وعزيمته، الوطن ممتد في الزمان والثقافة والحياة الاجتماعية والأشياء والطبيعة، لذا رفض أن يبقى بعيداً عن بيته، وطفق يتذكر ابنه (خلدون) الذي تركه وراءه ولا شيء أدل على هذا من الحوار الذي دار بينه وبين زوجته (صفية) حين قررا العودة إلى البيت، إذ قال على لسان سعيد: "فهمس بصوت مبحوح: خلدون؟" فخلدون ثابت في ذاكرته ما جعله يسمي ابنه

(خالداً) وابنته (خالدة). فالخارطة الذهنية للاجئين آباء وأبناء، رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً لا تنسى الوطن؛ ومن ثم تجلى تعلقهم به بأشكال شتى منها أسلوب مقاومة اللجوء، والإصرار على العودة، ومنها أسلوب المقاومة المسلحة التي يرمز إليها فعل (خالد)، وهو فعل مستمر ومكمل لحالة المقاومة التي بدأت منذ حالة الاحتلال الصهيوني كما يرمز إليها (فارس وبدر اللبدة).

وبناء على ما تقدم فلا شك لدينا في أن الرواية تعد تسجيلاً للأحداث التاريخية وللأفكار الأيديولوجية المتأثرة بالتربية الثقافية والاجتماعية ولكنها لم تنفصل عن المكان بوصفه القاسم المشترك النضالي بين الشخصيات. فالبيت ينتظر أهله الحقيقيين لكي يتمثلوه جوهره حياة ومبدأ كرامة، ما يشي بأنه محرك ودافع أصيل في حركة العمل الروائي كما هو في الواقع، والجميع يطوفون به، ويعملون من أجله، وهو السيد المطلق.

فالمكان (الوطن - حيفا - البيت - الأشياء - الطبيعة...) متعدد الصفات والاتجاهات في مقاومة الاحتلال، وهو يعبر عن زاوية الرؤية للانتماء الفاعل والمتأصل في ذاته... إنه يستند إلى رؤى مستسرة ترفض الإلغاء والاستئصال والتغيير والتزوير... ولذلك فهي رؤية تشير في أبناء الشعب العربي عامة والفلسطيني خاصة روح الاستبشار بالانتصار على مرارة الواقع البائس الذي يتنامى في حياة الفلسطيني اللاجئ.

وإذا كان بعض الدارسين قد أخذوا على غسان كنفاني تغيير مفهوم الانتماء لدى (خلدون) نتيجة التنشئة التربوية والثقافية لذلك الطفل الذي ربته أسرة صهيونية ورأوا فيه نمطاً من قبول العيش

المشترك فإننا نرى في ذلك رؤية أبعد. وكان فيصل درّاج - مثلاً - قد رأى أن الرواية "تثني على الإنسان الصهيوني دون أن تدري، وتحلم بفلسطين نظير يكون جوهرًا صهيونيًا مقلوبًا لا أكثر"⁽¹⁾.

إننا ممن يؤمن بتأثير قوي للتنشئة الاجتماعية والثقافية والتربوية، ولكننا في الوقت نفسه نؤمن - إلى جانب غسان كنفاني - بصلاصة جوهر حقيقة الانتماء، وبأن أي ثقافة - أيًا كانت قوتها المادية والمعنوية - لا يمكنها أن تزيف حقائق قوتها المادية والمعنوية، ولا يمكنها أن تزيف حقائق الجغرافية والتاريخ والقيم النبيلة وهذا ما نستشفه من الحوار الطويل الذي دار حول الواجب والوطن بين (سعيد) و (خلدون) ما جعله يثبت رؤيته حول الإنسان القضية، ومن أن ابنه (خالدًا) يمثل شرف الباقي، بينما صار (دوف) عارًا يدمغ ماضيها... وستظل فلسطين أكبر من الولد والأشياء، وهي بالنسبة لخالد "جديرة بأن يحمل السلاح ويموت من أجلها".

ومن ثم فقد استطاع الروائي أن يجسد رمزية مضادة ومغايرة لنفسية ذلك الطفل (خلدون) بين ثقافة الانتماء العربية وثقافة التطبيع مع المحتل الصهيوني، وهي الثقافة التي بدأت منذ الصغر كما يشير في غير مكان من الرواية ليقول من بعد: "منذ صغري وأنا يهودي، أذهب إلى الكنيس وإلى المدرسة اليهودية، وآكل الكوشير، وأدرس العبرية...". فتقافة التطبيع تنشأ رويدًا رويدًا، وهذا ما تجسّد لدى الطفل الذي غدا جنديًا في الجيش الصهيوني، ما يوحي بأن كل من

(1) انظر (نظرية الرواية والرواية العربية 87).

نشأ على ثقافة قبول الأمر الواقع سيقف في مواجهة المقاومين... وهو ما ظهر في الثنائية الضدية بين (خلدون) وأخيه (خالد) الذي انخرط في صفوف المقاومين لذلك الجيش المحتل. لهذا فإن الحوار الذي جرى بين (سعيد / الأب) و(خلدون - دوف / الابن) يدل على تمزق بين انتمائه العربي وتشبثه الصهيونية... بيد أن غساناً ظلّ حريصاً على إظهار تلك الأسرة الصهيونية بأنها أسرة غازية محتلة لبيته وأرضه، أيّاً كانت الصورة الحضارية التي قدمها فيها، ولاسيما حين تركت لخلدون (دوف) حرية الاختيار بين انتمائه العربي وتربيته الصهيونية.

ومن ثم فإن هناك علاقة جدلية بين البيت / الوطن و(خلدون - دوف) ولكن في إطار رؤية الانتماء والرؤية التربوية المختلفة. وهذا هو الذي فرض على غسان أن يقيم حواراً جوهرياً وموضوعياً بين الأب وابنه ليؤكد عمق الارتباط بالجوهر الحقيقي... وكأني به قد رغب في تقديم رسالة مبكرة إلى أولئك الذين ينفلتون من الإطار المكاني المقاوم الذي ولدوا فيه أو انتسبوا إليه بحكم وراثته الأبناء للأبناء والأجداد... فهو يريد أن يتجذروا فيه حتى لا يسقطوا في أتون الانحراف العقلي، والتوتر النفسي؛ والانجرار إلى ثقافة التطبيع والتسوية؛ متجاوزاً بهذا كله أولئك الذين صرفتهم أهواؤهم ونزواتهم المريضة فباعوا أوطانهم، حين رضوا العيش الذليل فاستسلموا لقوة المحتل... أراد أن يقول: إن الوطن / المكان سيلفظهم بعيداً ليرمي بهم في مزبلة التاريخ لأنهم عجزوا عن إدراك جدلية جوهر الانتماء للوطن والوفاء والإخلاص والتضحية من أجله... فغسان - كما قال عنه حليم بركات - رؤية، " والرؤية واضحة كالضوء، من خلالها نرى الواقع،

أجزاءه ليست متباعدة، منعزلة، بل مترابطة. الفلسطيني والعامل والمرأة وجميع أبناء شعوب العالم الثالث يملكون قضية واحدة هي قضية تحرير الإنسان من التعسف والظلم والاستغلال والقهر والتغريب إلى سلع في أسواق المدن الكبرى⁽¹⁾.

وبناء عليه فالمكان المقاوم الصامد صورة للثقافة الخصبة الممتدة في الذات والتاريخ والأرض سواء كان لغسان أم لأبناء وطنه يلاحقهم بكل تفاصيله وجزئياته، ليس شغفاً به فحسب وإنما تأصيلاً للملامحه في الذاكرة الوطنية والقومية.

وما من أحد قرأ تلك الرواية ووعى شرطها التاريخي الواقعي إلا أدرك الوفاء لطبيعية المكان؛ ولذّة السرد الروائي المكثف للملامحه المطبوعة بالنضال الوطني والإنساني ما يجعلها مجسدة لمفهوم المكان المقاوم والمقدس بكل أهدافه ووظائفه. فالرواية تمثل أنموذجاً روئياً متميزاً للمكان، وتحقق ريادة نوعية في تقنيات تسخير المكان للحدث التاريخي والواقعي، وفي التعبير عن المشاعر والأفكار.

ونكتفي بذلك لأن هذا الرواية وغيرها تحتاج إلى مزيد من التحليل. لنقف عند كلمة أخيرة تقودنا إلى خاتمة البحث.

(1) غسان كنفاني - شهادات وصور - إعداد الحكيم النعيمي - مؤسسة غسان كنفاني الثقافية - بيروت - 2001م - ص 97.

- كلمة أخيرة:

وبناء على ما تقدم في الأقسام الستة السابقة نقول:

أسس هذا الكتاب لمفهوم النكبة بوصفه غدا المحرك الفاعل لمركزية القضية الفلسطينية فكل معاني الأسى منه، وكل معاني التمرد والثورة تفجرت من معينه...

فالنكبة لم تعد بكاء على الفردوس المفقود، ولا ذرف دموع على إهدار كرامة الإنسان الفلسطيني؛ ولا تمزقاً قاتلاً في أرض اللجوء والشتات، ولا مجرد شعار يرفع لمقاومة التهويد المنظم الذي تمارسه الحكومة الصهيونية في زمن يقال فيه: إنه زمن الربيع العربي، لكن المتأمل في الأحداث يدرك أنه زمن الربيع الصهيوني، فالعرب يتقاتلون فيما بينهم، فيقتل الأخ أخاه كما حدث في حرب (داحس والغبراء) و(البسوس) ذات يوم، بينما الصهاينة يقومون بترتيب الدولة اليهودية وفق ما تعهدت به مؤتمراتهم من مؤتمر (بازل 1798م) حتى أنابوليس (200م) وهرتسليا (2012م)..

أصبحت النكبة تحراً ذاتياً وموضوعياً؛ وطنياً وقومياً، ثقافياً وتاريخياً، دينياً واجتماعياً... تحراً من كل عوامل التردد والإحباط والانكسار والخوف والذل والبؤس والهزيمة... وتحراً من عقدة الذنب التي سقطوا في أتون تناقضاتها حتى أدى بهم الأمر إلى خلق فتنة طامة لامة...

أضحت النكبة كل عام أملاً يتجدد في العودة إلى فلسطين من البحر إلى النهر، من دون الاعتداء على دور أي فرد أو مؤسسة أو سلطة فالجميع على قدم المساواة في النضال الوطني التحرري الذي يلتزم بحق العودة وحق تقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينية على كامل التراب الفلسطيني، وعاصمتها القدس بكل مكوناتها وملاحها التاريخية والمعاصرة والجغرافية والاجتماعية والدينية. وقد تقدم الشباب ليحملوا راية النضال، تساندهم المرأة الملتزمة بمبادئ الوطن والأمة؛ وقيم البطولة والشجاعة... في الوقت الذي تمضي صامدة في تربية النشء تربية خلقية نضالية تحررية؛ وتؤسس فيه أن فلسطين لن تضيع من بين أصابعنا بعد أن قبضنا عليها... وجميعهم يرفع صوته برفض المساومة والاستسلام، واتفاقيات الذل والعار... فما من اتفاقية إلا كانت لصالح الأقوياء الذين يفرضون شروطهم على الضعفاء... ولما تحررت الإرادة أصبح تحرير الشخصية الفلسطينية وأرضها قابلاً للتحقيق...

ومن ثم فإن الأدب الفلسطيني الذي ارتبط بالنكبة وجعلها المبدأ والخروج والمنتهى كان يدور حول تحرير الإنسان والأرض، ويرفض أي اتفاقية أو معاهدة تتعارض مع مبدأ فلسطين التاريخية...

ومن ثم تصدّى لكل أشكال الاحتلال الصهيوني الاستيطاني العنصري وفضح ممارسات التضليل والتشويه والتزوير التي ينفذها في كل زمان ومكان منذ القرن التاسع عشر.. في الوقت الذي كان يواجه الأدبيات الصهيونية وثقافتها العدوانية التي تسعى جاهدة إلى سرقة الذاكرة الفلسطينية الجمعية ومقدساتها وعاداتها وتقاليدها...

كان الأدب الفلسطيني المتركز حول النكبة يؤسس لمفهوم
الوحدة على كل مستوى وصعيد؛ ولم تتركه اختلافات السياسيين
ومدعي النضال والثورة... فالمبدعون شقوا طريقهم بقوة بين دهاليز
المنافقين من الأنظمة العربية الرسمية؛ ومن الذين باعوا أنفسهم
للسيطان، وللأعداء... الذين ما زالوا يتربصون بالوطن والأمة الدوائر...
لقد طرقتوا ذلك بأسلوب مباشر وغير مباشر؛ وطردها من ذواتهم
الأحلام الرومانسية ومرجعياتها المحبطة...

خاتمة:

تعد السنوات العشر الماضية من مطلع الألفية الثالثة معادلاً موضوعياً للوعي العظيم الذي أحاط بالنكبة مصطلحاً، ودلالة، تاريخياً وتطوراً... صمود وتحراً من التآرجح على حبال التشرذم والتهيه؛ وخيمة الذل والقهر... وتقنيداً لألاعيب الصهاينة ومزاعمهم حول المحرقة المزعومة، لأن ما يعانيه الشعب الفلسطيني أكثر ظلماً وقهراً من أي محرقة ارتكبت في التاريخ الإنساني.

ثم إن مأساة هذا الشعب أصبحت نشيداً إنسانياً نضالياً تحريراً في مقابل مشروع استيطاني استعماري صهيوني عنصري، إغائياً؛ غاصب للحياة والوجود والحضارة، قاتل للإنسان، مشوه للتاريخ والهوية والثقافة، ما جعل الأحرار والشرفاء في العالم ينضمون إلى قافلة المقاومة لتخليص فلسطين من براثن شذاذ الأفاق... يستوي في ذلك المثقفون والمبدعون والسياسيون والبرلمانيون وعامة القوم الذين عاينوا مآسي نكبة الشعب الفلسطيني.

ثم إن الخيام والمنافي غدت رمزاً للعودة، وكذلك هي إقامة المهرجانات والندوات والأمسيات التي أبقت القضية الفلسطينية رطبة في أفواه البشرية كافة. فلا غرو بعد هذا كله أن يعمد الصهاينة إلى إلغاء كل ما يشير إلى مفهوم النكبة في الأدبيات الصهيونية بعد أن كان حريصاً على تبنيها... فمفهوم النكبة ومتعلقاته تحول إلى برنامج

مقاوم في بعض الدول العربية يتطور بتطور الأحداث والوقائع والمستجدات، ما يثبت أن الثابت بقي ثابتاً كالهوية (الانتماء الفلسطيني) والوجود التاريخي الحضاري، وحق تقرير المصير وبناء الدولة الفلسطينية كاملة السيادة وعاصمتها القدس. فالشعب الفلسطيني تجاوز عقد الخوف والنقص في نظرته لعدوه، تجاوز خوفه من التهديد بالانقراض و.... فالأجيال من الأطفال إلى الكبار ينظرون اليوم بعين الرضا للتحويلات الجارية في قضيتهم وهم متمسكون بها حتى الشهادة أو النصر... ثم إنهم ينظرون إلى المستقبل بعين التفاؤل والأمل للتطهر من كل آثار النكبة، وجراحها النازفة، وآلامها الراحفة. هكذا أضحت أي ذكرى للنكبة وقفة نضالية مقاومة وقد استلهم الشعب العربي منها معاني الاعتبار والموعظة... فمن لم يفهم التاريخ كتب عليه أن يقع في مطباته...

والله من وراء القصد

المصادر والمراجع

- 1- إبراهيم طوقان (حياته ودراسة فنية في شعره) - د. محمد حسن عبد الله - مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري - الكويت - 2002م.
- 2 - الآثار الشعرية - كمال ناصر - أعدها وقدم لها إحسان عباس - المؤسسة العربية للدراسات - بيروت - ط1 - 1974.
- 3 - الآثار الكاملة - غسان كنفاني - مؤسسة الأبحاث العربية مج1 - (الروايات) ط5 - بيروت 1999م - ومج2 (المجموعات القصصية) - ط3 - بيروت 1987م.
- 4 - أحجار على رقعة الشطرنج (التطبيق العملي لبروتوكولات حكماء صهيون) - وليام جاري كار - عرض وتعليق مجدي كامل - دار الكتاب العربي - دمشق والقاهرة - ط1 - 2011م.
- 5 - أحلام العودة (شعر) حسن طالب الزريقي ، بيت فلسطين للشعر - دمشق - ط1 - 2011م.
- 6 - اختراع الشعب اليهودي - شلومو ساند - المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار) - رام الله - أيلول 2010م.

- 7 - أدب الحرب - حنا مينه ونجاح العطار - دمشق - 1976م.
- 8 - أدب المقاومة - غالي شكري - دار المعارف بمصر - القاهرة - 1970م.
- 9 - أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 1948 - 1966 - غسان كنفاني - مؤسسة الأبحاث العربية (مؤسسة غسان كنفاني الثقافية - بيروت - 1966م - ط1 - و 1987م - ط3).
- 10 - أدب النكبة في التراث العربي - محمد حمدان - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2004م.
- 11 - إسرائيليات - عدد خاص عن المقاومة - رقم 51 - اللجنة الشعبية العربية السورية لدعم الشعب الفلسطيني ومقاومة المشروع الصهيوني - دمشق - 2010/5/12م.
- 12 - الأعمال الشعرية الكاملة - يحيى محمد برزق - جمع وإعداد مخلص يحيى برزق - بيت فلسطين للشعر - دمشق - 2012م.
- 13 - إيليا أبو ماضي (الأعمال الشعرية الكاملة) - جمع وتقديم د. عبد الكريم الأشتر - مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين - الكويت - 2008م.
- 14 - البحيري (موقف ورسالة) - إسماعيل مروة - دار البشائر للطباعة والتوزيع - دمشق - 1991م.
- 15 - بوح (قصائد مختارة) - نزار بني المرجة - إصدار خاص - دمشق - 2011م.
- 16 - تحولات المجتمع في الرواية الفلسطينية - رتيبة شبلاق - مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 1995م.

- 17 - التراب الحزين - مجموعة قصصية - بديع حقي - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - تموز - 2008م
- 18 - جمالية الشخصية الفلسطينية لدى غسان كنفاني - د. ماجدة حمود - دار النمير - دمشق - 2003م.
- 19 - جمالية المكان - غاستون باشلار - ترجمة غالب هلسا - 1984م.
- 20 - خلف أسوار الهوى (شعر) - ياسر أحمد علي - بيت فلسطين للشعر - دمشق - 2011م.
- 21 - دراسات في أدب النكبة (الرواية) - د. عبد الكريم الأشتري - دار الفكر - دمشق - ط1 - 1975م.
- 22 - دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي - حسين مروة - بيروت - 1986م.
- 23 - دولة اليهود - تيودور هرتزل - ترجمة مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت - 1997م.
- 24 - ديوان إبراهيم طوقان (مقدمة لفدوى طوقان) - تحقيق إحسان عباس - دار القدس - بيروت - 1975م.
- 25 - ديوان الجواهري - محمد مهدي الجواهري - أشرف على الطباعة عدنان درويش - وزارة الثقافة - دمشق - 1979م.
- 26 - ديوان القروي - رشيد سليم الخوري - مديرية الثقافة العامة - وزارة الإعلام - بغداد - دار الحرية للطباعة 1973م.
- 27 - ديوان محمود درويش - دار الحرية - بغداد - ط2 - 2000م.

- 28 - ديوان الوطن المحتل - يوسف الخطيب - دار فلسطين - دمشق - 1968م.
- 29 - رسالة من المسجد الأقصى (شعر) - د. عبد الغني التميمي - بيت فلسطين للشعر - دمشق - 2009م.
- 30 - سورية (الاستهداف والمؤامرة) دراسة - د. حسين جمعة - 2012م.
- 31 - الشعر المقاوم في جيله الثاني (من قصيدة الثبات إلى قصيدة الانتفاضة) - طلعت سقيرق - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 1993م.
- 32 - الصهيونية - منير ماشوش - دار المسيرة - بيروت - ط1 - 1979م.
- 33 - الصورة الأخيرة في الألبوم الأخير - رواية - سميح القاسم - اختيار وتقديم حسن حميد - سلسلة كتاب الجيب رقم 27 - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - آذار - 2009م.
- 34 - عائد إلى حيفا وأعمال أخرى - غسان كنفاني - تقديم د. حسين جمعة - اختيار فادية غيبور - سلسلة كتاب الجيب 31 - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2009م.
- 35 - علي محمود طه (شعر ودراسة) - المحامي سهيل أيوب - دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر - دمشق - 1962م.
- 36 - عودة الغرباء - شعر - هارون هاشم رشيد - المكتب التجاري - بيروت - 1956م.
- 37 - عودة النسور (شعر) - محمد توكلنا - بيت فلسطين للشعر - دمشق - 2011م.
- الغيتو الصهيوني - يوسف سامي اليوسف - دار الكرامة - دمشق - د/تا.

- 38 - غسان كنفاني - شهادات وصور - إعداد الحكيم النعيمي -
مؤسسة غسان كنفاني الثقافية - بيروت - 2001م.
- 39 - فلسطين (الأرض والتاريخ والمقاومة) - مؤسسة القدس للثقافة
والتراث - دمشق - ط1 - 2012م.
- 40 - قرنفل أحمر... لأجلها - قصص قصيرة - حسن حميد - اتحاد
الكتاب العرب - دمشق - 1990م.
- 41 - قضايا في الفكر السياسي والقومي - د. حسين جمعة - دار
الشرق - دمشق - 2009م.
- 42 - كفاح عرب فلسطين - عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) -
منشورات مؤسسة اللاجئين الفلسطينيين العرب - دمشق - آب 1964م.
- 43 - لسان العرب - ابن منظور - دار صادر - بيروت - 1955م.
- 44 - لفلسطين أغني - شعر - حسن البجيرى - مطبعة دار الحياة -
دمشق - 1979م.
- 45 - المأزق العربي (دراسة حول المشاريع المطروحة في المنطقة...)-
سهيل عروسي - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2005م.
- 46 - المؤامرة ومشروع الفتنة والتفتيت - د. حسين جمعة - مجلة الفكر
السياسي العدد - 42 - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2011.
- 47 - مختارات من الشعر الفلسطيني - اختيار وتقديم علي الخليلى -
أمانة عمان الكبرى - عمان - 2002م.
- 48 - مشروع القومية العربية إلى أين - د. حسين جمعة - دار الفرقد -
دمشق - 2006م.

- 49 - مصير القدس في ظل مشروع التهويد - د. حسين جمعة - مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية - العدد الخاص بالقدس عاصمة الثقافة العربية لعام 2009م.
- 50 - معارج الإبداع (ما لم ينشر من كتابات غسان كنفاني) - إعداد عدنان كنفاني - مؤسسة فلسطين للثقافة - دمشق - ط3 - 2001م.
- 51 - معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين - مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين - الكويت - ط1 - 1995م.
- 52 - مفهوم ظاهرة الإدراك ومدى توظيفها في ميدان الجغرافية السياسية - إبراهيم محمد علي الفقي - مجلة جامعة الملك سعود - مج21 - الآداب كانون الثاني / يناير 2009م.
- 53 - المقاومة (قراءة في التاريخ والواقع والآفاق) - د. حسين جمعة - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2007م.
- 54 - ملامح في الأدب المقاوم (فلسطين أنموذجاً) - د. حسين جمعة - وزارة الثقافة - دمشق - 2009م.
- 55 - المنظمات الصهيونية التي تسعى إلى تدمير الأقصى وبناء الهيكل المزعوم - سلسلة أبحاث القضية الفلسطينية - رقم 9 - هيئة الأبحاث القومية - القيادة القومية - دمشق - شباط 2012م.
- 56 - من القدس إلى غزة (دراسة فكرية سياسية) - د. حسين جمعة - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2010م.
- 57 - الموسوعة الفلسطينية - بيروت - ط1 - 1990م.

- 58 - نظرية الرواية والرواية العربية - د. فيصل دراج - المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء / بيروت - ط1 - 1999م.
- 59 - الهولوكوست (حقيقتها والاستغلال الصهيوني لها) - ندى الشقيفي - مركز باحث للدراسات - بيروت - ط1 - 2001م.
- 60 - الوطنية في شعر حسن البصري - إعداد صبري يوسف دياب - دار المعارف للطباعة - دمشق - ط1 - أيار - 1985م.
- 61 - ومضات (شعر) - خليل أحمد - بيت فلسطين للشعر - دمشق - ط1 - 2011م.

الدوريات

1 - الصحف

- 1 - جريدة البعث - العدد 13998 - دمشق - الأربعاء 2010/7/21م.
- 2 - جريدة تشرين - دمشق - العدد 11130 - الاثنين 2011/6/27م،
والعدد 11139 - الخميس 2011/7/7م.
- 3 - جريدة الثورة - دمشق - العدد 14566 - الخميس 2011/6/23م.

2 - المجلات

- 1 - مجلة زهرة المدائن - العدد 17 - آب 2011م - والعدد 26 - دمشق -
أيار - 2012م والعدد 27 - حزيران 2012م.
- 2 - مجلة الطلائع - تصدر عن طلائع حرب التحرير الشعبية (قوات
الصاعقة - العدد 1573 - دمشق - 2012/4/4م.
- 3 - مجلة العودة - العدد 56 - دمشق - أيار 2012م.
- 4 - مجلة فلسطين المسلمة - العدد السادس - دمشق - السنة 30 -
حزيران - 2012م.
- 5 - مجلة الهدف - الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - دمشق - العدد
1429 - 5 أيلول - 2010م والعدد 1441 - 2011/8/15م والعدد
1450 - 2012/5/15م.

السيرة الثقافية والعلمية للدكتور حسين جمعة

1 - الصفة الجامعية والشهادات العلمية

- دكتوراه في الآداب - جامعة دمشق

1 - أستاذ الأدب القديم - قسم اللغة العربية - جامعة دمشق - منذ عام 1983 وما يزال.

2 - أستاذ معار إلى جامعة قطر - قسم اللغة العربية - كلية الإنسانيات 1992 - 1997 - قام بتدريس الأدب القديم والنقد العربي القديم - وكتب التراث.

3 - أستاذ الدراسات العليا - الدبلوم الأدبي واللغوي - جامعة دمشق منذ 1997 - وما يزال.

4 - الإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه، والمشاركة في مناقشتها في جامعة دمشق والقطر...

2 - المهام الإدارية والعلمية والثقافية

- 1 - مدير ثانوية - : ثانوية خير الدين الزركلي - مديرية التربية في دمشق - وزارة التربية - (1 / 1 / 1977 - 8 / 10 / 1984م).
- 2 - مقرر جمعية البحوث والدراسات - اتحاد الكتاب العرب - منذ عام 2001 حتى غاية 2004م.
- 3 - نائب رئيس تحرير مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية - (20 / 3 / 2003 - 3 / 11 / 2003م) - بالمذكرة الإدارية للسيد رئيس الجامعة رقم (204 / و) تاريخ (19 / 3 / 2003م) والمبلغة إلى كلية الآداب برقم (1133/و) - في (20 / 3 / 2003م).
- 4 - رئيس تحرير مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية - منذ (4 / 11 / 2003م) بالمذكرة الإدارية للسيد رئيس الجامعة رقم (965/م) تاريخ (3 / 11 / 2003م) والمبلغة لكلية الآداب برقم (5062/و) تاريخ (4 / 11 / 2003م) حتى (28 / 12 / 2009م).
- 5 - رئيس فرع دمشق لاتحاد الكتاب العرب - بالقرار رقم (994) تاريخ (23 / 8 / 2003م) - الصادر عن السيد الدكتور رئيس اتحاد الكتاب العرب حتى تسلمه مهام رئاسة الاتحاد في 4 / 9 / 2005م.
- 6 - رئيس اتحاد الكتاب العرب في سورية - ابتداء من 4 / 9 / 2005م إثر انتخابات الدورة السابعة للمؤتمر العام السابع لاتحاد الكتاب العرب المنعقد في دمشق (1 / 9 / 2005م) ثم جلسة مجلس الاتحاد

- ممن انتخبهم المؤتمر - في 3 / 9 / 2005م... وإعادة انتخاب مرة ثانية رئيساً للاتحاد في الدورة الثامنة 2010/10/7م وما يزال.
- 7 - رئيس تحرير مجلة الفكر السياسي - اتحاد الكتاب العرب - منذ عام 2005 وما يزال.
- 8 - عضو اللجنة الشعبية العربية السورية لدعم الشعب الفلسطيني ومقاومة المشروع الصهيوني منذ 2005م وما يزال.
- 9 - عضو مجلس إدارة الهيئة العامة السورية للكتاب - بالمرسوم التشريعي رقم (8) لعام 2006م وما يزال.

3 - مؤلفاته المنشورة:

الكتب

- 1 - الحيوان في الشعر الجاهلي (دار رسلان - دمشق - 2010م). ط2.
- 2 - مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية (دار رسلان - دمشق - 2010م). ط2
- 3 - الملل والنحل للشهرستاني: عرض وتعريف (دار دانية دمشق - 1990م).
- 4 - الرثاء في الجاهلية والإسلام (دار معد - دمشق - 1991م).
- 5 - مختارات من الأدب في صدر الإسلام (جامعة دمشق - 1992م).
- 6 - قراءات في أدب العصر الأموي (جامعة دمشق - 1992 - 1993م).
- 7 - قصيدة الرثاء - جذور وأطوار - دار النمير ومعد - دمشق - 1998م).

- 8 - في جمالية الكلمة - (دار رسلان - دمشق - 2011م) - ط2.
- 9 - ابن المقفع بين حضارتين - طباعة المستشارية الإيرانية بدمشق - 2003م).
- 10 - إبداع ونقد - قراءة جديدة للإبداع في العصر العباسي - دار النمير - دمشق - 2003م).
- 11 - المسبار في النقد الأدبي - (دار رسلان - دمشق - 2011م) ط2.
- 12 - نصوص من الأدب العربي المعاصر - بالاشتراك - (جامعة دمشق - 2005م).
- 13 - جمالية الخبر والإنشاء - دراسة جمالية أسلوبية - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2005م.
- 14 - التقابل الجمالي في النص القرآني - دار النمير - دمشق - ط1 - 2005م.
- 15 - مرايا للالتقاء والارتقاء - اتحاد الكتاب العرب - دمشق 2005م.
- 16 - مشروع القومية العربية إلى أين؟ - دار الفرقد - دمشق 2006م.
- 17 - المقاومة قراءة في التاريخ والواقع والآفاق - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2007م.
- 18 - اللغة العربية إرث وارتقاء حياة - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2008م.
- 19 - قضايا في الفكر السياسي والقومي - دراسة - مؤسسة الشرق - دمشق - 2009م.
- 20 - ملامح في الأدب المقاوم / فلسطين أنموذجاً - الهيئة العامة السورية للكتاب - وزارة الثقافة - دمشق - 2009م.

- 21 - من القدس إلى غزة - دراسة - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2010م.
- 22 - حراس الكلمة والموقف (دراسة في الشخصيات) - اتحاد الكتاب العرب - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2011م.
- 23 - قضايا ومبدعون (دراسة في الشخصيات) - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2012م.

الفهرس

5.....	/	
13.....	/	
17.....		
21.....		
25.....		
26... (1918 1798)	:	1
41..... 1948 1918	:	2
58.....(1965 1948)		
82.....(2000 1965)		
102.....(... 2000)		
) :	:
120..... (
135.....		
138.....		
141.....		
149.....		